حصن مخاضة يعقوب وأثره في الصراع الصليبي الإسلامي
(١١٧٨-١١٧٩م/٥٧٤-٥٧٥هـ)

د. حجازي عبد المنعم سليمان
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المُساعد
(كلية الآداب – جامعة المنوفية)

لعب حصن مخاضة يعقوب دورًا مُهمًّا ومُؤثرًا في الصراع الإسلامي الصليبي؛ لأنه في الوقت الذي سعى فيه الصليبيون إلى بناء الحصن لقلب موازين الصراع ضد المسلمين على الحدود الشرقية بعامة وعلى ممرات الأردن والجليل الأعلى بخاصة لصالحهم، فإن استيلاء المسلمين على الحصن وتدميره قلب الصراع لصالحهم.

ويُعالج هذا البحث حصن مخاضة يعقوب وأثره في الصراع الصليبي الإسلامي من خلال عدة محاور يتصدرها تعريف بحصن مخاضة يعقوب، وأسباب اختيار موضع بناء الحصن وأهميته في الصراع بين المسلمين والصليبيين، والدراسات السابقة في هذا الموضوع، ودراسة نقدية لأهم المؤرخين المُعاصرين الذين عالجوا تاريخ الحصن، وعمليات بناء الحصن والمُشاركين في عمليات البناء والتأمين، وأهم العناصر المعمارية في الحصن، والعقبات التي واجهها الصليبيون في بنائه، ناهيك عن المعارك التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين تمهيدًا لحصاره، وملابسات حصار المسلمين للحصن وسقوطه، والنتائج التي ترتبت على سقوطه، وأهم النتائج التي وقف عليها الباحث من دراسته لهذا الموضوع على مستقبل الصراع بين الصليبيين والمسلمين.

تعريف بالحصن وأهميته والدراسات السابقة:

عُرف الحصن في المصادر العربية باسم بيت الأحزان وحصن مخاضة يعقوب والحصن اليعقوبي، وأطلق كل من الأصفهاني وأبي شامة "المشهد اليعقوبي" على موقع بناء الحصن[١]، وأشار إليه ابن الأثير بأنه الحصن الذي شيده الصليبيون عند بيت يعقوب بمكان

(١) الأصفهاني (محمد بن صفي الدين بن محمد الأصفهاني، ت: ٥٩٧هـ): البرق الشامي، تحقيق: فالح حسين، جـ٣، مُؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ١٩٨٧م، ص١٥٧، ١٨٣؛ ابن واصل (محمد بن سالم جمال

يُعرف بمخاضة الأحزان[١]. ووصفه كل من ابن أبي طي وياقوت الحموي ببيت الأحزان، وأشار الأخير إلى وقوعه بين دمشق والساحل الشامي[٢]، وأطلق وليم الصوري على الموقع اسم مخاضة يعقوب[٣].

وعرف أرنول مخاضة يعقوب *Gués Jacob* بغموض شديد بوصفها الموضع الذي ناضل فيه يعقوب عليه السلام ضد الملائكة[٤]، وحدد يوحنا فورزبورج مكان ذلك النضال

الدين، ت: ٦٩٧هـ/١٢٩٨م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، جـ٢، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٦٠م، ص٧٢.

(١) ابن الأثير (علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، ت: ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، جـ١٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م، ص٩٥.

(٢) أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، ت: ٦٦٥هـ): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، جـ٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ص١٨؛ ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، ت: ٦٢٢هـ/١٢٢٥م): معجم البلدان، جـ١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ص٥١٩. وقد عُرف موقع الحصن ببيت الأحزان نسبة لأنه شهد أحزان يعقوب على ولده يوسف – عليهما السلام – بعدما علم بموته المُزيف، واعتاد بعض المسلمين التردد عليه فيما بعد خلال العصر المملوكي. وقد وقف إيلينبلوم في كهف قريب من صفد يسمى "مغارة بنات يعقوب" على نص مُؤرخ في يونيه ١٤١٢م/ربيع أول ٨١٥هـ ويسرد استقبال يعقوب لقميص يوسف عليهما السلام. وقد ازداد الاهتمام بمخاضة يعقوب خلال القرن السابع عشر وعُرفت آنذاك بـ "جسر بنات يعقوب" *Ford of Jacob's Daughters*، واستمرهذ التقليد قائمًا خلال القرن الثامن عشر. انظر:

Ellenblum, R. 'Frontier activities: the transformation of a Muslim sacred site into the Frankish castle of Vadum Iacob', *Crusades*, 2, (2003), pp. 85–6.

وأيضًا: مصعب حمادي نجم الزيدي: "موقف تنظيمي الاسبتارية والداوية من حروب الناصر صلاح الدين الأيوبي"، مجلة كلية العلوم الإسلامية، الموصل، المجلد الثالث، العدد السادس، ٢٠٠٩م، ص٨٩.

(3) William of Tyre, *A History of Deeds done beyond the Sea*, trans. and annotated by Babcock, E. A., and Krey, A.C., vol. 2, (New York, 1943), pp. 436–7.

(4) Ernoul, *Chronique d'Ernoul et de Bernard Le Trésorier*, ed. M. de Mas Latrie. Société de l'Histoire de France (Paris, 1871), pp. 51–3.

بمخاضة يعقوب وليس مخاضة أيبوك *Vadum laboc* [١] التي ورد ذكرها في الكتاب المُقدس، حقًا لم يوضح فورزبورج، إذا كان الموضع الذي صحح تسميته، هو موقع مخاضة يعقوب التي نقصدها أم لا[٢]، ولكنه أكد التشابه الكبير بين مخاضة يعقوب ومخاضة أيبوك، وأن المكان كان قائمًا بالفعل في حدود عام ١١٦٠م/٥٥٥هـ[٣]. بينما ورد الحصن في وثائق مملكة بيت المقدس باسم*Vadum Jacob* أي مخاضة يعقوب *Jacob's Ford* وعُرف أيضًا في القرن الثاني عشر باسمه العربي بيت الأحزان[٤].

---

(١) حدد إيلينبلوم موقع *Vadom laboc* في وادي الزرقا Wadi az-Zarkah جنوب Gerasa على الطريق إلى عمان. وثمة مواقع أخرى يُشار إليها مرتبطة بأحزان يعقوب عليه السلام، من ذلك إشارة يوحنا فورزبورج إلى بئر يعقوب الذي يبعد عشرة أميال إلى الجنوب الشرقي من مخاضة يعقوب، أو بوقوعه في وادي دوسان Dothan على مسافة ٦٠ ميلًا إلى الشمال الشرقي من مخاضة يعقوب. بينما عين ياقوت الحموي موقع بئر يوسف بين طبرية وبانياس أو بين دمشق والساحل، وأكد آخرون أن يعقوب عليه السلام عاش حياته في نابلس، وبوقوع البئر في قرية بين سان جيلز ونابلس. ورجح إيلينبلوم بناء مزار مخاضة يعقوب عام ١١٥٧م ربما تخليدًا لذكرى انتصار المسلمين على الصليبيين في معركة وقعت آنذاك. ولعله من المُثير للإهتمام أن الاسم الفرنجي *Vadum Jacob* ذُكر أيضًا لأول مرة عام ١١٥٧م، ولذا أبدى المسلمون فرحة كبيرة ظهرت في أشعارهم حال استيلائهم على الحصن وتدميرهم إياه. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ١، ص٥١٩؛ الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص181؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٦-٩٧. وأيضًا:

John of Würzburg, *Descripition of the Holy Land*, (1160-1170 a.d.), In PPTS., trans.by: Aubrey Stewart, vol. V, (London, 1896), pp 8, 14. Cf. also: Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 84-5.

(2) Würzburg, *Descripition of the Holy Land*, pp. 8, 14.

(3) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 85.

(٤) أشار كيندي إلى اشتهار الموقع في القرن الثالث عشر باسم *Chastellet* و*Chastelez* ، أما اليوم فيُعرف في الأدبيات العبرية باسم *Metzad 'Ateret*، بمعنى قلعة الوفرة بعدما حُرم من اسمه العربي "قصر العطرة" *Qasr al-'Atara*. انظر:

Kennedy, H., *Crusader Castles*, (Cambridge, 1994), p. 57.

وتتبع أهمية هذه الدراسة من الآمال العريضة التي سعى الصليبيون إلى تحقيقها من بناء الحصن في ذلك الموقع المُهم للغاية؛ إذ يقع الحصن إلى الغرب من مخاضة يعقوب[١] على نهر الأردن على مسافة متقاربة من كل من هونين شمالًا وبحيرة طبرية جنوبًا، كما يقع الحصن إلى الشمال الشرقي من صفد على مسافة ١٥كم تقريبًا، وإلى الجنوب الغربي من بانياس على مسافة ١٦ كم تقريبًا، وبين الحصن وبيت المقدس في الجنوب ١٦٠ كم تقريبًا[٢]، ويقع على مسافة قريبة للغاية من الحولة[٣]. وهناك شيَّدَ الصليبيون حصنهم على تل يقع على مسافة ٥٠٠ متر جنوب غرب مخاضة يعقوب التي غدت واحدة من أكثر مخاضات عبور الأردن أمانًا والمفتاح الرئيس لعبور الأردن إلى أحد أهم الطرق الرئيسة بين

---

(١) بلغ عدد مخاضات الأردن حوالي خمسين مخاضة استخدمها المارة في عبوره مثل مخاضة عَبْرَة شمال شرق بيسان، ومخاضة فحل ومخاضة دامية عند مصب نهر الزرقاء ومخاضة أريحا الأولى، وتقع عند التقاء نهر نمرين بالأردن، ومخاضة الزوار أو حجلا جنوب شرقي أريحا. وبات لتلك المخاضات أهمية كبيرة في التواصل بين ضفتي النهر نتيجة لصعوبة الملاحة في النهر لغلبة الوحل عليه أغلب فصول السنة، ولا يفيض النهر سوى حينما تذوب ثلوج جبل الشيخ في أبريل، ناهيك عن كثرة تيارات النهر وتعرجاته وضحالة مياهه، وقد استخدمت أماكن ضحالة المياه كمخاضات عبور تصل بين ضفتيه شرقًا وغربًا، ومن بينها مخاضة يعقوب. وقد أنشأ صلاح الدين جسرًا هناك وجدده الظاهر بيبرس فيما بعد، أما الجسر الراهن فأُقيم على الجسر الذي تم تجديده في القرن السادس عشر. ومن أهم الجسور الأخرى التي أُقيمت على النهر: جسر الصنبرة والجسر العادلي تحت عقبة فيق وجسر شامة المقارب لقرية المجامع، وجسر المجامع على مسيرة ٢١ كم جنوبي مدينة طبرية وعلى بضعة أميال شمال طبقة فِحل، وجسر الشيخ حسين على مسافة ٧.٥ كم جنوبي بيسان، وجسر دامية على مسافة ٤٣ كم جنوبي جسر الشيخ حسين. انظر: مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، جـ١، ق١، دار الهدى، ١٩٩١م، ص٧٣–٧٦.

(2) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 436–37.

بانياس: واحدة من أشهر مدن بلاد الشام بعامة وفترة الحروب الصليبية بخاصة، وتقع على السفح الجنوبي الشرقي لجبل الشيخ، على الطريق الواصل بين داخل بلاد الشام شرقًا والساحل الجنوبي شمال بحيرة الحولة، ويتردد ذكرها في المصادر كثيرًا خلال هذه الفترة بسبب ما موقعها الحيوي وإشرافها على بعض ممرات الأردن. انظر: ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص٢٧٣–٢٧٤.

(٣) انظر موقع الحصن على الخريطة الملحقة بملاحق البحث.

عكا[١] وطبرية[٢] ودمشق، وبين دمشق والقاهرة[٣]. وبناء على ذلك، فإن بناء الحصن في تلك البقعة سيُشكل جبهة قوية مع حصن هونين أو كاستيلا نوفا *Chateau-neuf* بما يكفل إغلاق معابر الأردن إلى شمال مملكة بيت المقدس في المسلمين وانطلاقاتهم من دمشق ضد مدن شمال المملكة ومواني‌ء الساحل[٤].

وفضلًا عن ذلك، فإن تشييد الحصن في تلك المنطقة سيُمكن الصليبيين من السيطرة على ممرات الأردن والجليل الأعلى وممرات عبور الأردن[٥]. وقد أشار سمايل *Smail* إلى

---

(١) عكا: من المدن الحصينة والواقعة على ساحل البحر المتوسط وتُعد من أهم مواني مملكة بيت المقدس ولعبت دورًا بارزًا في الصراع الإسلامي الصليبي. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص١٤٢-١٤٢. وأيضًا: مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة: محمد وليد الجلاد، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م، ص٩٤-٩٧.

(٢) طبرية: بلدة مُطلة على بحيرة طبرية، وبينها وبين القدس حوالي اثنتى عشرة كيلو مترًا، وبينها وبين عكا حوالي ثمانين كيلو مترًا، وهي قريبة للغاية من حصن مخاضة يعقوب. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص١٧-١٩.

(٣) نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الفرسان الرهبان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٩٢.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، جـ٢، ط٩، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠١٠م، ص٥٠. كانت دمشق مقرًا للسلطة السياسية الإسلامية أكثر أهمية من حمص، وأصبح العبور من دمشق إلى الأردن والساحل أخطر من العبور من حمص إلى طرابلس، وبات من اليسير على قوة إسلامية أن تتوغل إلى شمال المملكة عبر الطريق الرئيس من دمشق إلى صور وصيدا، أو الاندفاع عبر الأردن إلى سهل عكا. وقد سعى الصليبيون إلى بناء قلاعهم للدفاع عن حدودهم في ظل افتقار الحدود الشرقية إلى الحماية الطبيعية مما سمح للمسلمين بالوصول إلى المواني‌ء الرئيسة في المملكة. بيد أن سمايل يرى أن الأمر لم يكن كذلك وبخاصة أن بانياس كانت في أيدي الصليبيين فقط من عام ١١٢٩ إلى ١١٣٢م، ومن ١١٤٠ إلى ١١٦٤م، إضافة إلى أن حصن مخاضة يعقوب تأسس عام ١١٧٨م وتم تدميره نهائيًا عام ١١٧٩م. وكان الدخول إلى المملكة عن طريق معبر الأردن إلى الجنوب مباشرة من بحيرة طبرية في الصنبرة، والذي تم استخدامه خلال الغزوات الرئيسة لمودود وطغتكين عام ١١١٣م واستخدمه صلاح الدين في أعوام: ١١٨٢ و١١٨٣ و١١٨٧م ولم يكن وقتها مُحصنًا. انظر:
Smail, *Crusading Warfare*, p. 207.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨١.

مقدار الخطر الذي سيتعرض له المسلمون من جراء بناء الحصن في ذلك الموضع وبخاصة أن تجارب الصليبيين مع حصونهم في الفولة[١] وكوكب الهوا[٢] وتبنين[٣] وصفد[٤] على الخط الحدودي الشرقي الفاصل بينهم وبين دمشق لعبت دورًا مهمًّا في تهديد حركة المرور من شرق الأردن إلى غربه[٥]، كما سعوا إلى منع المُسلمين من حشد قواتهم بالسرعة التي

---

(١) الفولة: قلعة في فلسطين تقع على الطرق التي تربط بين بيت المقدس ونابلس وطبرية وكانت خاضعة للداوية ومن هنا نبعت خطورتها. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص٢٨٠. وأيضًا: نبيلة مقامي: فرق الفرسان، ص٩٥–٩٦.

(٢) كَوْكَب *Belvoir*: قلعة على الجبل المُطل على مدينة طبرية وتتسم بالحصانة وتشرف على الأردن، وتقع على ارتفاع ٥٠٠ متر فوق سطح البحر؛ وبسبب موقعها المُطل على نهر الأردن وطبرية والجليل والجولان في جنوب بيسان، فإنها سيطرت على غالبية الطرق المحلية في المنطقة. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص٤٩٤. وأيضًا: نبيلة مقامي: فرق الفرسان الرهبان، ص٧٩.

(٣) تبنين أو تورون Toron: تقع على بُعد ثلاثة وعشرين كيلو مترًا إلى الجنوب الشرقي من بانياس وعلى مسافة قريبة من ذلك من صور في الغرب. انظر: ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٢٧٤؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص١٤.

(٤) صَفَدُ: قلعة قوية تقع في وادي الحولة ونهر الجليل، وتسيطر على طريق دمشق – طبرية، وكان من أهم أهداف الفرنج من إنشاء قلعة صفد التصدي لغارات المسلمين المنطلقة من دمشق على الجليل وطبرية ومواني‌ء الساحل. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٣، ص٤١٢. وأيضًا: نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الفرسان، ص٨٧.

(٥) يرى بروتس Prutz أن الصليبيين اعتمدوا في دفاعهم عن حدودهم على مجموعة الحصون والقلاع التي تكفلت تكفلت بالدفاع عن حدودهم ضد غارات المسلمين عليها. ويرى سمايل أن مثل تلك الرؤية مُتأثرة بالتعميمات غير المدروسة التي أطلقها بعض المُؤرخين المُعاصرين وينبغي التعامل معها بحذر؛ لأن ما صح منها في مكان لم يصح كليًا في آخر. ويرى سمايل أن قلاع العصور الوسطى لم تكن للغرض الدفاعي وحده وإنما كانت أكثر من مُجرد قلعة بالمعنى العسكري الحديث، لأنها مكنت سيدها من تلبية احتياجاته في الحماية الخارجية والشرطية في حفظ الأمن متلما مكنته من الإفادة من المنطقة المُحيطة بالقلعة واستغلال سكانها. ويدعم هذه الرؤية أن الغزو الصليبي وتوسعاته لم يتم بناء على مخطط عام تم تنفيذه بدقة ولم تأمر به سلطة مُوحدة وعامة، بل كثيرًا ما توسع البارونات والأمراء على حساب جيرانهم بسبب جشعهم وشجاعتهم، وكان الجانب المادي للقلعة أكثر أهمية لديهم من الناحية العسكرية أو من رؤية المملكة والصالح العام. انظر:
Smail, R.C., *Crusading Warfar*e, (1097–1193), (Cambridge, 1956), pp. 204–5. Cf. also: Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge,* (Berlin, 1883), pp. 195–6.

اعتادوا عليها في مهاجمة شمال المملكة وبعض مدن الساحل مثل عكا وصور[١] وبيروت، وذاك ما منح حصن مخاضة يعقوب مكانته الاستراتيجية[٢].

وتمتعت المنطقة المُحيطة بالحصن بظهير زراعي متميز بحيث وصف وليم الصوري القرى والضياع المُحيطة بالتل الذي شُيد عليه الحصن بكثرة بساتين الفاكهة والزراعات الأخرى بها[٣]، ووصف أبو شامة الأرض المُحيطة بالحصن بالخصوبة لقربها من نهر الأردن، ولذا كثرت الحقول

---

(١) صور: مدينة حصينة على ساحل البحر المتوسط، ويقع أغلبها في البحر وهي أشبه ما تكون بالكف داخل البحر والساعد في البر. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٣، ص٤٣٣-٤٣٤؛ الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار، ٢٠٠٤م، ص٨٨. وأيضًا:

Richard of Holy Trinity, Itinerary of Richard I and others to the Holy Land (formerly ascribed to Geoffrey de Vinsauf), (Cambridge, Ontario, 2001), pp. 48-49.

(2) Barber, M., 'Frontier Warfare in the Latin Kingdom of Jerusalem: The Campaign of Jacob's Ford, 1178-79', in *the Crusades and their Sources*, (eds.) John France and William G. Zajac, (Ashgate, 1998), p. 19. Cf. also: William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 436-7.

وقد ربط كل من بروتس وسمايل بين أهمية الحصن بخاصة وبين الأهمية الأشمل للحصون في تلك الفترة بعامة، واعتبر بروتس أن وجود قلاع بعينها من شأنه أن يُشكل نظامًا قويًّا للدفاع عن الحدود الصليبية. ورأى سمايل أن من أهم أولويات الحاميات التي دافعت على تلك الحصون في زمن السلم قمع الاضطرابات والتصدي للغارات الصغيرة، ولكن حينما تقع الحروب الشاملة أو الكبيرة، فإنه لم يكن في مقدورها منع مرور القوى المُهاجمة، بدليل أن حامية حصن مخاضة يعقوب فشلت في منع غارات صلاح الدين على صفد وبيروت وصور والحصن نفسه طوال عام ١١٧٩م/٥٧٤-٥٧٥هـ. وأكد سمايل أن المسلمين نجحوا في اختراق حاجز الجبال والتلال – الذي وفر حماية مؤقتة للصليبيين – عبر مجموعة من الممرات الواسعة التي مكنتهم من اختراق العمق الصليبي من الشرق إلى الغرب، وكانت بعض الأماكن سيئة التحصين وبخاصة الطرق الرئيسة المُؤدية إلى المملكة ولم تتوفر حماية طبيعية لبعضها، ولذا شيد الصليبيون بعض الحصون – ومنها مخاضة حصن يعقوب – بهدف اللجوء إليها وقت الخطر وللحصول على الدعم المادي والبشري. انظر:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 437-43. Cf. also: Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge,* pp. 195-6. Cf. also: Smail, R.C., *Crusading Warfar*e, (1097-1193), (Cambridge, 1956), pp. 204-8.

(3) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 436-8.

والبساتين والمروج الخضراء[١]، وفي هذا حرص من الصليبيين على الإفادة من البيئة المُحيطة بالحصن لتوفير بعض احتياجات حاميته من الغلال والفاكهة. ولأجل هذا وذاك كان بناء الحصن مُزعجًا للمسلمين وهدد حدودهم الغربية وخلق حالة من الجدل لدى صلاح الدين ومُستشاريه.

ولم يقف الباحث على أية **دراسات سابقة** مفردة ومستقلة في هذا الموضوع باللغة العربية، أما من تعرضوا له في إطار دراساتهم عن تاريخ مملكة بيت المقدس بعامة وعصر الملك بلدوين الرابع *Baldwin IV of Jerusalem* (١١٦١-١١٨٥م/٥٥٦-٥٨١هـ)[٢] أو عصر صلاح الدين بخاصة، فقد غلب عليها التعميم والشمول والاقتضاب بما لا يليق بالأثر الذي تركه هذا الحصن على مستقبل الصراع الإسلامي الصليبي. أما الدراسات الأجنبية، فقد وقف الباحث على عدة دراسات سابقة في هذا الموضوع يتصدرها الدراسة المُهمة التي أعدَّها باربر *Barber* عن حصن مخاضة يعقوب والحدود الصليبية الإسلامية. وعالج باربر عدة إشكالات مهمة أفاد منها الباحث، ولكنه ركز على الأثر الذي تركه الحصن على الحدود الصليبية الإسلامية حينما تتبع نتائج استيلاء المسلمين على الحصن في تغير السياسة الحدودية برمتها لصالح المُسلمين في الفترة التالية.

ولم يكن باربر مُوفقًا في بعض الإشكالات التي طرحها منها إشارته إلى مُعاصرة القاضي الفاضل بناء الحصن بصفته أحد شهود العيان، ووصف روايته بالأوفى خلافًا للحقيقة، وفي ظل حرصه على رصد الأثر الذي تركه بناء الحصن وهدمه على مستقبل الحدود بين الطرفين، فإنه لم يصف عمليات البناء أو تكاليف التشييد وتفاصيل عمارة الحصن وعمليات الحصار[٣] وما إلى ذلك من القضايا التي يسعى الباحث إلى مُعالجتها.

---

(١) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٥، ٢٩.

(٢) بلدوين الرابع: هو ابن الملك عموري الأول ووريثه، وقد أُصيب بالجذام ولم يتزوج، وتوفي عام ٥٨١هـ/١١٨٥م تاركًا ابن اخته بلدوين الخامس الطفل وليًّا لعهده. انظر: البنداري: سنا البرق، ص٢٨٨؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢٣٠.، ص٢١. وأيضًا:

William of Tyre, *History of Deeds,* vol. 2, pp. 397–509.

(3) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 9–10.

أما إيلينبلوم *Ellenblum* فله أكثر من دراسة اصطبغت بالطابع الأثري نتيجة لأعمال التنقيب التي قام بها في موقع حصن مخاضة يعقوب، وأفاد الباحث مما قدمه إيلينبلوم في بحوثه ودراساته، نظرًا لكثير من الرؤى والتفسيرات المهمة التي طرحها[١]. وقد حرص الباحث على الإفادة من نتائج دراسات إيلينبلوم الأثرية وتوظيفها في هذا الموضوع من الناحية التاريخية. وعلاوة على ذلك، فإن إيلينبلوم لم يكن مُوفقًا في كثير من معالجاته بما في ذلك إشارته إلى مُهاجمة صلاح الدين للحصن – في أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ – بصحبة القاضي الفاضل ووصفه له بأنه كان مبعوث الخليفة[٢]، وهذا مُخالف للحقيقة؛ لأن صلاح الدين أغار على الحصن بصحبة الخادم فاضل مبعوث الخليفة وليس القاضي الفاضل[٣]، فضلًا عن أن الأخير لم يكن في الشام آنذاك وإنما كان يُؤدي فريضة الحج[٤].

ونتيجة لتعصب إيلينبلوم ضد المسلمين، فإنه تبنى رؤية محددة مفادها عدم اكتمال بناء الحصن وقت مهاجمة المسلمين له، وسعى بكل وسيلة لإثبات تلك الفرضية ليُقلل من شأن الانتصار الذي حققه صلاح الدين على الصليبيين بالاستيلاء على الحصن وتحويل مجرى الحوادث لصالح المسلمين بعدئذ[٥]. وأغفل إيلينبلوم في بحوثه الأثرية التي أجراها حول

---

(1) Ellenblum, Frontier activities, pp. 83–97; Ellenblum, R., *Crusader Castles and modern histories*, (Cambridge University Press, 2007); pp. 258–74; Mitchell, D., Nagar, Y., Ellenblum, R., 'Weapon injuries in the 12th century Crusader garrison of Vadum Iacob Castle, Galilee', *International Journal of Osteoarchaeology*, Int. J. Osteoarchaeol, 16, March (2006), pp. 146–8.

(2) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٧.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٧، ١٥٦–١٦٠، ١٨١–١٨٢.

(5) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 262–4.

الحصن الإشارة إلى واقعة همفري *Humphrey of Toron* [١] ومعركة مرج عيون وأثرهما في تغيير الموقف العسكري لصالح المسلمين وحثهم للاستيلاء على الحصن بالرغم من إصراره على تأكيد خوف صلاح الدين من مُواجهة الصليبيين، بسبب هزيمته في معركة مونتجيسارد *Mont Gisard* في نوفمبر ١١٧٧م/ جمادى الأولى ٥٧٥هـ[٢].

دراسة نقدية لأهم المؤرخين الذين عالجوا تاريخ الحصن:

وقبل الخوض في بناء الحصن، فإنه ينبغي الوقوف على أهم المؤرخين الذين تناولوا بناء الحصن والاستيلاء عليه وتدميره. وينبع حرص الباحث على معالجة هذه الإشكالية من وقوفه على كثير من المبالغات وأحيانًا عدم الدقة لدى كل من باربر وإيلبنيبلوم بخصوص هذه الإشكالية. وقد انتقد باربر وصف ابن الأثير للحصن بالقوة والمنعة مُعتبرًا ذلك مُبالغة وعدها واحدة من صور التلميع التي أضفاها ابن الأثير على كيفية استيلاء المسلمين على الحصن وتدميرهم إياه. ولعله أصاب في اعتراضه على وصف ابن الأثير للحصن بالمنعة؛ لأن الأخير لم ير الحصن بالفعل، ولكن ابن الأثير لم يكن مُبالغًا، لأنه كان مُطلعًا على المصادر المُعاصرة وعلى اتصال بشهود عيان ولم يُقدم وصفًا لم يرد لدى المُؤرخين المُعاصرين[٣].

---

(١) ورد ذكر الأجيال التي حملت اسم عائلة همفري مقرونًا بتورون وتبنين على مدى أربعة أجيال متتالية، وكانوا ممن شغلوا مكانة مرموقة في مملكة بيت المقدس. وورد اسم همفري في المصادر الإسلامية والصليبية بصور مُختلفة منها هنفري وهمفري وهنغري على ما ورد لدى المؤرخين المسلمين، بينما ورد بأشكال أخرى لدى المؤرخين الصليبيين على شاكلة همفري وأونفروا *Onfori* وأمفرد *Amfrid* ورينفرو دي تورون *Reunfru du Toron*. انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص١١٣، ٣١٩؛ البنداري (الفتح البنداري): سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية النبراوي، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٣١٢؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٢-٧٣م. وأيضًا:

William of Tyre, *History of Deeds,* vol. 2, pp. 452–453; Ernoul, *Chronique d'Ernoul*, pp. 31, 63, 311.

(2) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 86.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٥.

ووقع باربر في تناقض آخر بخصوص المصادر حينما جعل رواية القاضي الفاضل الأكثر تفصيلًا من بين الروايات المُعاصرة بحجة أن الفاضل كان أحد شهود العيان على بناء الحصن، وأنه حصل على روايته من صلاح الدين بحكم عمله كاتبًا له وبخاصة أخبار الحوادث التي لم يكن شاهدًا عليها(١). ويرى الباحث أن التعويل على رواية الفاضل للأسباب المذكورة غير دقيق؛ لأن الفاضل لم يكن وقتها كاتبًا لصلاح الدين بينما كان العماد الكاتب الأصفهاني كاتبه ومرافقه(٢)، وكان الفاضل أقرب إلى صلاح الدين من الأصفهاني ذاته(٣)، بيد إن الأخير كان أحد أهم شهود العيان على بناء الحصن، وشارك في العمليات الحربية

---

(1) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 9–10.

(٢) لم يُفارق الأصفهاني مُعسكر صلاح الدين منذ التحاقه بخدمته عام ١١٧٥م سوى مرات معدودة، واشترى بيتًا على مقربة من مقر إقامة صلاح الدين في دمشق عام ١١٨٦م/٥٨٢هـ ليكون قريبًا منه في أي وقت، واستمر الأصفهاني كاتبًا لصلاح الدين منذ التحاقه بخدمته حتى وفاة صلاح الدين عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨١؛ الأصفهاني: الفتح القسي، ص٦١–٦٢، ٧٤، ٩٩، ٢٣٧–٢٣٨؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٨–٢٩، ٦٥–٦٦، ٣٢٣، ٣٤٥–٣٤٦، جـ٤، ٩–١٠، ٥٩، ٧٣، ٨٢، ٩٢، ٩٦، ٢٧٩، ٣٧٧. وأيضًا:

Lutz, R. B., 'Imād al-Dīn al-Iṣfahānī', *Medieval Muslim Historians and the Franks in the Levant*, (ed.) Alex Mallett, (Brill, 2014), pp. 29–36; Gibb, H. A. R., 'Al-Barq al-Shāmī: The History of Saladin by the Kātib 'Imād ad-Dīn al-Iṣfahānī', *Wiener Zeitschrift für Kunde des Morgenlandes*, vol. 52, (1953), pp. 93–115; Gibb, H. A. R., 'The Arabic Sources for the Life of Saladin', *Speculum*, vol. 25.1, (1950), pp. 58–72; Reynolds, D. F., ed., Interpreting the Self: Autobiography in the Arabic Literary Tradition, London, (2001), pp. 10, 146–55; Lutz, R. B., 'Funken aus dem kalten Flint: ʿImād ad-Dīn al-Kātib al-Iṣfahānī (II)', In: *Die Welt des Orients.* Bd. 22 (1991), pp. 119–21, 126–8, 130, 132.

(٣) عن دور القاضي الفاضل السياسي والعسكري انظر: حجازي عبد المنعم سليمان: "أصداء التخطيط السياسي والعسكري لدى صلاح الدين في رسائل القاضي الفاضل وديوانه"، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، العدد الثالث والثمانين، أكتوبر ٢٠١٠م، ص٢٩٩–٣١٦.

التي أفضت إلى سقوطه بأيدي المسلمين وهدمه. وأما تأكيد باربر حصول الفاضل على مادته من صلاح الدين فلا يمكن الجدال فيه، بيد إن الأصفهاني ذاته كان يُوافي الفاضل في أثناء وجود الأخير في الحجاز – منذ مارس ١١٨٩م/أواخر شوال ٥٧٤هـ لتأدية فريضة الحج – برسائل أطلعته على مجريات الحوادث المتعلقة بالحصن[١].

والشاهد، إن وصف باربر لرواية الفاضل بالأوفى لكونه أحد شهود العيان وبسبب مصادره المتعددة وصف غير دقيق؛ لأن الفاضل لم يكن موجودًا في بلاد الشام ليشهد بناء الحصن والغارات التمهيدية ومعركتا همفري ومرج عيون[٢]. ولم يكن الفاضل موجودًا في الشام ذلك العام سوى وقت سقوط الحصن في أغسطس ١١٧٩م/ربيع أول ٥٧٤هـ، ولكن لم يقف الباحث على ما يُفيد بمرافقة الفاضل للجيش وقت سقوط الحصن أم لا؛ وذلك خلافًا للأصفهاني الذي شارك في غالبية العمليات العسكرية التي خاضها الجيش الإسلامي ضد الصليبيين من بدايتها إلى نهايتها، وكان برفقة الجيش، حينما اقتحم الحصن في ٢٨ من أغسطس ١١٧٩م/٢٤ من ربيع أول ٥٧٥هـ[٣]. وعلى الرغم من اعتماد باربر على الأصفهاني، فإنه لم يعد إلى كتابه البرق الشامي الذي تعرض لتلك الإشكالية بالتفصيل، وإنما نقل رواية الأصفهاني من أبي شامة[٤].

وتتبع قيمة رواية الأصفهاني عن الحصن من صفته الإدارية بالنسبة لصلاح الدين؛ لأنه كان كاتبه وكاتم أسراره ورافقه في غالبية تحركاته بعامة وتحركاته تجاه هذا الحصن بخاصة[٥]. ولا ريب في أن الأصفهاني أفاد من الأسرى الذين حررهم صلاح الدين من الحصن في استكمال

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٦-١٤٧، ١٤٩-١٥٢، ١٥٩-١٦٠، ١٨١-١٨١.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٥-١٤٦.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨١.

(4) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 9–10.

(٥)الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨١؛ الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٤٣؛ البنداري: سنا البرق، ص٩٠؛ ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت: ٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، جـ٤، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ص١٤٩؛ أبو شامة: الروضتين، ص٤٧٤. وأيضًا:
Lutz, *Imād al-Dīn al-Iṣfahānī*, pp. 38–9; Lyons, M. C. & Jackson, D.E.P., *Saladin: The Politics of the Holy War,* (Cambridge, 1982), pp. 293–5; Gibb, H. A. R., *The Life of Saladin from the Works of Imād ad-Dīn and Bahā' ad-Dīn*, (Oxford, 1973), pp. 94–8.

الصورة التي قدمها عنه بحكم مشاركتهم في تشييده[١]، مثلما أفاد من مرافقته للجيش وقت سقوط الحصن، وبذا يتفرد الأصفهاني عن مُعاصريه بأنه يكاد يكون المُؤرخ الوحيد تقريبًا الذي شهد عمليات بناء الحصن وحصاره وسقوطه وتدميره من بدايتها إلى نهايتها.

أما المؤرخون الآخرون فلم تضاهي روايتهم رواية الأصفهاني، وكان المؤرخ الصليبي المُعاصر وليم الصوري موجودًا في أوربا لحضور مجمع اللاتيران الثالث الذي عقد في روما في ٥ من مارس١١٧٩م/٢٥ من رمضان ٥٧٤هـ، حينما شرع الصليبيون في بناء الحصن ولم يشهد غالبية الحوادث المتعلقة به[٢]، وبالرغم من عودته إلى المملكة حينما شرع صلاح الدين في حصار أغسطس ١١٧٩م/ربيع أول ٥٧٥هـ الذي أسفر عن سقوط الحصن فقد جاءت روايته حينها قصيرة ومُبهمة وغافلة عن تفاصيل عمارته[٣]، وذلك خلافًا لعادة وليم الصوري في اهتمامه بالجوانب المعمارية والطبوغرافية؛ ربما لأنه كان مُتأثرًا سلبًا بتدمير الحصن.

ومما يُرجح عدم رؤية وليم الصوري للحصن أن الفترة التي عاد فيها من أوربا إلى المملكة هي الفترة التي غلبت فيها كفة صلاح الدين وبات مُحاصرًا للحصن تقريبًا، وشهدت المنطقة حالة حرب دائمة، وانشغل الصليبيون بالتصدي للغارات التي شنها صلاح الدين من بانياس وما حولها على مدنهم وضياعهم، ولذا لم يصف وليم عمارة الحصن بالرغم من روايته الطويلة عن المعارك والاشتباكات التي دارت حول الحصن وإن حاول تصويرها بمعزل عن محاولات المسلمين للاستيلاء على الحصن. ولعله لو رأى الحصن أو وصفه له أحد الصليبيين – وكان هذا من الأمور الصعبة؛ لأن الذين شهدوا آخر أعمال بناء الحصن، وكانوا فيه وقت الاستيلاء عليه سقطوا بين قتيل وأسير – لنقل لنا وصفًا فاق به وصفه للقسطنطينية بعد زيارته لها[٤] أو وصفه للقاهرة الفاطمية

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

(2) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 436– 8.

(3) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 438–45

(4) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 379–84. Cf. also: Runciman, S., 'The visit of King Amalric I to Constantinople in 1171', (eds.) Kedar, B. Z., Mayer, H., and Smail, R. C., Outremer: *Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem presented to Joshua Prawer*, (Jerusalem,1983), pp.153–8.

وغيرها[١]، ولكن يبدو أن السرعة التي شُيِّد بها الحصن وهُدِمَ بها أيضًا أصابته بالإحباط وجعلته يحجم عن وصفه المعتاد، وقد رأى باربر أنه ونتيجة لتلك الظروف ربما لم يُحط وليم تمامًا بملابسات بناء الحصن[٢].

بناء الحصن:

أولًا: المشاركون في البناء وتأمين الموقع:

بدأت عمليات البناء في أكتوبر ١١٧٨م/ربيع أول ٥٧٤هـ، وأكد وليم الصوري أن كافة قوى المملكة احتشدت للمساهمة في عمليات البناء وتأمينها، بيد إن ذلك لم يحدث طوال فترة الستة أشهر التي شُيِّد فيها الجانب الأكبر من الحصن؛ فقد شارك في بناء الحصن كل من الملك بلدوين الرابع وغالبية بارونات المملكة وكبار موظفيها وعلى رأسهم همفري أوف تورون الكونستابل الملكي وريناالد سيد صيدا *Reinaldus Sydoniensis* وغيرهما[٣]، كما شارك كل من بوهمند الثالث أمير أنطاكية *Bohemond III of Antioch* (١١٤٤-١٢٠١م/٥٣٤-٥٩٧هـ) وريموند الثالث أمير طرابلس *Raymond III of Tripoli* (١١٤٠-١١٨٧م/٥٣٤-

(1) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 318–322. Cf. also: Schlumberger, G., *Campagnes du Roi Amaury I de Jérusalem en Egypte*, (Paris, 1906). pp. 116–24.

(2) Barber, *Frontier Warfare*, p. 20. note. 3.

(3) Delaville Le Roulx, (J.), *Cartulaire général de l'ordre des Hospitaliers de St Jean de Jérusalem*, vol. 1, (Paris, 1894–1906), pp. 379–80, no. 559, pp. 362–3, no. 530, pp. 363–4, no. 531; Mayer, H. E., *Die Urkunden der lateinischen Könige von Jerusalem*, vol. 2, (Hanover, 2010), pp. 647–8, 687–8, nos. 376, 404, pp. 688–91, no. 405, pp. 692–3, no. 406, pp. 697–8, no. 408; Müller, G., *Documenti sulle relazioni delle città toscane coll'Oriente cristiano e coi Turchi fino all'anno 1531*, (Florence, 1879), pp. 17–18, no. 15; Hiestand, R., *Papsturkunden für Templer und Johanniter*, vol. 2, (Göttingen, 1972–84), pp. 239–47.

٥٨٣هـ) ومقدم الداوية أودو أوف سانت أماند *Odo of St Amand* ومقدم الاسبتارية روجر أوف مولان *Roger de Moulins* وغيرهم كثير(١). وبالرغم من مرض بلدوين الرابع وتدهور حالته الصحية، فإنه ظل معسكرًا في موقع البناء منذ أكتوبر ١١٧٨م/ربيع أول ٥٧٤هـ وحتى وقت رحيله عنه في ٢ من أبريل ١١٧٩م/٢٣ من شوال ٥٧٤هـ على ما تُفيد الوثائق الملكية التي حررها من موقع الحصن. وقد حرر من معسكره في مخاضة يعقوب الملك خلال تلك الفترة بعض وثائق المنح والهبات(٢) وصادق على بعضها الآخر(٣)، وفض نزاعًا بين الداوية والاسبتارية(٤) وغير ذلك مما ورد في الوثائق التي حررها الملك في أثناء إقامته في موقع البناء.

وفضلًا عن بلدوين الرابع، فقد أكدت قائمة شهود تلك الوثائق وجود كل من أمير أنطاكية وأمير طرابلس والكونت جوسلين الثالث *Joscelin III of Edessa* (١١٣٤-١٢٠٠م/٥٢٨هـ-٥٩٦هـ) ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وريناالد سيد صيدا وأبراهام الناصري *Abraham de Nazareth* وغيرهم كثير من بارونات الصليبيين في الشرق في موقع البناء خصوصًا في الفترة من فبراير وحتى أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ(٥)، الأمر الذي يعكس تكاتف الصليبيين وتعاونهم للانتهاء من بناء الحصن في وقت قصير، وبخاصة أن صلاح

---

(1) Delaville Le Roulx, *Cartulaire général*, vol. 1, pp. 379–80, no. 559; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 692–3, no. 406, pp. 697–8, no. 408; Müller, *Documenti*, pp. 17–18, no. 15; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239–47, no. 28.

(2) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 688–91, no. 405.

(3) Delaville Le Roulx, *Cartulaire general, vol.* 1, pp. 362–3, no. 530, pp. 363–4, no. 531; Mayer, *Die Urkunden, vol.* 2, pp. 647, 687, nos. 375, 403, pp. 647–8, 687–8, nos. 376, 404, pp. 692–3, no. 406.

(4) Mayer, *Die Urkunden, vol.* 2, pp. 693–7, no. 407, pp. 697–8, no. 408, pp. 698–700, no. 409; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239–47, no. 28.

(5) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 704–5, no. 412.

الدين كان قد انتهى من حصار بعلبك[١] وعاد إلى دمشق في منتصف مارس مما جعل الصدام وشيكًا بين الطرفين[٢]. أما بعد الثاني من أبريل حيث حرر الملك آخر وثيقة ملكية له في موقع الحصن، فإنه حرر الوثائق التالية – وفقًا لما وقف عليه الباحث – ابتداء من الأول من مايو ٢٣/١١٧٩ من ذي القعدة ٥٧٤هـ في عكا[٣]، ثم في عكا مرة أخرى في ٢٤ من نوفمبر ١١٧٩م/٢٣ من جمادى الآخرة ٥٧٥هـ[٤]، وفي بيت المقدس أولًا في ٢٢ من أكتوبر/٢٠ من جمادى الأولى ٥٧٥هـ[٥] ثم في ديسمبر ١١٧٩م/رجب ٥٧٥هـ[٦]، كما تُشير تُشير وثائق المملكة والداوية والإسبتارية[٧].

---

(١) عن قلعة بعلبك الواقعة في البقاع انظر: مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص٦٧-٦٨.

(٢) تضمنت قائمة شهود الوثائق التي حررها الملك من موقع البناء عددًا كبيرًا من أمراء الشرق الصليبي الذين شاركوا في بناء الحصن ومنهم: جوسلين كونت الرها، وريناله سيد صيدا والنبيل بالياس من أبلين، وبطرس دو كرايزيكا قسطلان بيت المقدس، وجالتيروس دي بيرتو وغيرهم من وجوه المملكة. انظر:

Delaville Le Roulx, *Cartulaire general,* vol. 1, pp. 362–3, no. 530, pp. 363–4, no. 531; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 647, 687, nos. 375, 403, pp. 647–8, 687–8, nos. 376, 404, pp. 688–91, no. 405, pp. 697–8, no. 408; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239–47, no. 28.

(3) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 704–5, no. 412.

(4) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 708–10, no. 415.

(5) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 706–7, 848, nos. 413, 498.

(6) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 704–5, no. 412.

(7) Prutz, H., *Malteser Urkunden und Regesten zur Geschichte der Tempelherren und der Johanniter,* (Munich, 1883), p. 115 no. 44.

وتاريخ هذه الوثيقة غير محدد على وجه اليقين، ويرجح بروتس صدورها في الفترة من ١٠ أبريل إلى ٢٤ ديسمبر ١١٧٩م، مما يعني أنه في أسوأ الفروض فإن الملك بلدوين رحل عن الحصن في العاشر من أبريل. وتؤكد بعض الوثائق أن آخر ظهور للملك في الحصن كان في الثاني من أبريل ١١٧٩م. انظر:

Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 700–3, no. 410.

وبالرغم من إشارة الوثائق إلى وجود كل من أمير طرابلس[١] وأمير أنطاكية[٢] في موقع البناء، فإنهما كانا يتركانه ويعودان إلى إمارتيهما من وقت لآخر، على ما فعل كل من بوهمند الثالث وريموند الثالث الذين عادا مرة وربما أكثر إلى إمارتيهما لقضاء بعض أشغالهما على ما تفيد الوثائق التي حرراها من أنطاكية وطرابلس قبل ٢ من أبريل ١١٧٩م/٢٣ من شوال ٥٧٤هـ، وتعلق بعضها بحسم بعض الخلافات أو الموافقة على إنهاء نزاع ما على ما حدث بين الداوية والاسبتارية[٣]. وقد شارك ريموند الثالث في معركة مرج عيون ونجا منها بصعوبة[٤]، ولكن لم يقف الباحث على مشاركة أمير أنطاكية في تلك المعركة أو غيرها من المعارك التي وقعت في الفترة ما بين رحيل الملك عن موقع الحصن في الثاني من أبريل ١١٧٩م/٢٣ من شوال ٥٧٤هـ وحتى وقت استيلاء المسلمين على الحصن في ٢٨ من أغسطس ١١٧٩م/٢٤ من ربيع أول ٥٧٤هـ.

ويرجح الباحث في ضوء تلك الوثائق أن كل من ريموند الثالث وبوهمند الثالث لم يُشاركا في العمليات العسكرية التي أفضت إلى سقوط الحصن في أغسطس ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ، حيث صدرت وثيقة في أنطاكية بتأكيد من بوهمند الثالث في ٢٩ من أغسطس/٢٥ من ربيع أول وتُرجح ابتعاد بوهمند عن ما يحدث في حصن مخاضة يعقوب وقت حصاره

(1) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 692–3, no. 406; Müller, *Documenti*, pp. 17–18, no. 15.

(2) Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239–47, no. 28; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 697–8, no. 408.

(3) Delaville Le Roulx, *Cartulaire general*, vol. 1, pp. 379–380, no. 559.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠. وأيضًا:

William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 442.

وسقوطه[١]، وكذا الحال بالنسبة لريموند الثالث[٢]، ولم يقف الباحث سوى على قدوم رسول ريموند الثالث إلى معسكر صلاح الدين عقب استيلاء الأخير على الحصن[٣].

وأما الداوية والاسبتارية، فلم يلتزما بالبقاء في الموقع طوال فترة البناء، وذلك على الرغم من أن بناء الحصن نتج عن ضغط الداوية على الملك لتشييد الحصن في هذا الموقع على وجه التحديد[٤]، علاوة على تأثر السياسة الحدودية الجديدة للصليبيين برؤى كل من الداوية والاسبتارية في بناء – أو إعادة بناء – حصون الجبهة الشرقية في هونين في أعلى الجليل ومخاضة يعقوب في منطقة ممرات الأردن إلى قلب المملكة والساحل وكوكب الهواء في جنوب غرب طبرية للسيطرة على الغور[٥]، ناهيك عن

---

(1) Delaville Le Roulx, J, *Les Archives, la bibliothèque et le trésor de l'ordre de Saint-Jean de Jérusalem à Malte*, (Paris, 1883), pp. 142–4, no. 52; Cf. also: Prutz, *Malteser Urkunden*, p. 117, no. 47.

(٢) قام ريموند الثالث بتحرير وثيقة أقر فيها بعض المنهج والاقطاعات وذلك في التاسع والعشرين من أغسطس ١١٧٩م، وهذا يؤكد أنه لم يشارك الملك في التحرك لإنقاذ الحصن من حصار المسلمين. انظر:

Delaville Le Roulx, *Les Archives*, pp. 142–4, no. 52. Cf. also: Prutz, *Malteser Urkunden*, p. 117, no. 47.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

(4) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 436–8.

(٥) يُعرف الغور بأنه الانخفاض السهلي الكبير الواقع بين فلسطين وسورية والأردن، ويُسمى قسمه الشمالي بسهل الحولة، ولا يزيد عرضه عن ٨ كم، وتُقدر مساحته بحوالي ٢٦٢ كم، ويُعرف القسم الواقع بين بحيرة طبرية في الشمال والبحر الميت في الجنوب باسم وادي الأردن أو غور الأردن، وكثيرًا ما يُذكر تخفيفًا باسم الغور فقط، وتُقدر مساحته بحوالي ٦٨١ كم. ويبلغ عرض الغور في الضفة الفلسطينية في جنوبي بحيرة طبرية نحو ٦.٥ كم، ثم يتسع حتى يبلغ ١٣ كم مقابل بيسان، ولكنه يضيق حينما يدخل بيسان ليصل عرضه إلى ٥ كم، ثم يتسع ثانية حتى يصل إلى ١٠ كم عند خربة مضايل، أما أقصى عرض له فيصل مقابل أريحا إلى ٢٢.٥ كم. وفي الغور قرى ومزارع ومدن كثيرة منها أريحا وطبرية وبيسان وعمتا والعوجا وفحل والصنبرة وعين جالوت وعفربيلا شرقي بيسان وغيرها كثير. انظر: مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، جـ١، ق١، ص٩٢–١٠٣.

قلعتي الكرك[١] والشوبك[٢] في جنوب شرق المملكة بحيث يمكن السيطرة على إيقاع هذه الحدود وتحجيم قوة المسلمين في دمشق، وكثيرًا ما كانوا يتركون موقع البناء من وقت لآخر وفق مصالحهم. وقد رصدت الوثائق نشوب خلاف بين مقدمي الداوية والإسبتارية في فترة بناء الحصن وتدخل بوهمند للصلح بينهما في أنطاكية وليس في موقع الحصن[٣]. وعليه، فإن الملك تولى منذ البداية مسؤولية بناء هذا الحصن وتأمينه ولم يرحل عن موقع البناء لمتابعة تطور العمل وتأهبًا لأي رد فعل من جانب المُسلمين، بينما كان أمراء أنطاكية وطرابلس، وكذا مُقدمي الداوية والإسبتارية أقل التزامًا بالبقاء في موقع البناء.

ثانيًا: عمليات البناء ووصف الحصن:

بدأت عمليات البناء في أكتوبر ١١٧٨م/ربيع الآخر ٥٧٤هـ لاعتبارات أمنية ومُناخية، فأما الأمنية، فمردها انشغال صلاح الدين بحصار مدينة بعلبك لإخماد تمرد ابن المقدم بها، فاستغل الصليبيون هذا الموقف لصالحهم، وشرعوا في بناء الحصن[٤]، ولم تتفرج أزمة حصار بعلبك سوى في منتصف مارس عام ١١٧٩م، ولذا استغل الداوية تلك الفرصة وشرعوا في بناء الحصن وبخاصة أن الصليبيين نقضوا هدنة عام ١١٧٧م/٥٧٢هـ منذ هجومهم على حماة في أغسطس ١١٨٧م/ربيع أول ٥٧٤هـ قبيل حصار صلاح الدين

---

(١) الكَرَكْ: قلعة حصينة تقع في جبال البلقاء وتتوسط ميناء أيلة والبحر الأحمر وبيت المقدس، وتقع على قمة جبل مُرتفع وتُحيط بها الأودية من ثلاث جهات. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص٤٥٣.

(٢) الشَوْبَكْ: تقع قلعة الشوبك الحصينة على يمين وادي عربة، بين عمان وأيلة والبحر الأحمر وبالقرب من الكرك، وشُيدت بهدف مراقبة شرق مملكة بيت المقدس. انظر: فولشر أوف شارتر: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة وتعليق: قاسم عبده قاسم، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٢٥٧–٢٥٨؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٣، ص٣٧٠.

(3) Delaville Le Roulx, *Cartulaire general,* vol. 1, pp. 879–80, no. 559.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٤–١٤٥؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٢.

لبعلبك[١]. وأما الاعتبار المُناخية فمرجعه أن الحرارة لا تُحتمل في الجزء العلوي من وادي الأردن في الفترة من يونيه إلى نهاية سبتمبر، ثم تنخفض درجات الحرارة بشكل كبير في شهر أكتوبر، وتبدأ مواسم الأمطار أيضًا بنهاية شهر أكتوبر وتصل ذروتها في الفترة من ديسمبر إلى فبراير، ولذا لم يكن أمام الصليبيين سوى شهرين من أعمال البناء المُكثف في الطقس المُعتدل في أكتوبر ونوفمبر قبل بداية موسم الأمطار.

وأشار وليم الصوري إلى اختيار مكان الحصن على جاري عادة الصليبيين في بناء الحصون والقلاع على تل مسطح *Mediocriter Eminens* متوسط الارتفاع[٢]، وأكد الأصفهاني أن الصليبيين قاموا بتسوية التل ليناسب بناء الحصن[٣]. ويرى كينيدي أنه تم تشييد الحصن في موقع حيوي على جاري عادة الصليبيين خصوصًا الداوية في بناء حصونهم على أحد الطرق المهمة[٤]. وقد أشار الفاضل إلى باشورة الحصن دون أية تفاصيل[٥]، ووصفها باربر بالمُحيط الضخم الذي يرتبط بالحصن وتُمثل أماكن الخدمة لتشغيل الحصن[٦]. وحفر المعماريون خندقًا في الجهة الشرقية أمام الباب الرئيس[٧]، بيد إن موقع الخندق المُستقبلي كان على بُعد عشرة أمتار تقريبًا إلى الشمال والجنوب من جدران الحصن[٨].

---

(1) Ernoul, *Le Chronique*, p. 52.

وأيضًا: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١٠، ص٩٢. وأيضًا:

Barber, *Frontier Warfare*, pp. 10–11.

(2) William of Tyre, *History of Deeds,* vol. *2,* p. 437.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

(4) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 57.

(٥) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٥.

(6) Barber, *Frontier Warfare*, p. 10.

(7) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 263.

(8) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

ولم يُشر إلى الشكل الهندسي للحصن سوى وليم الصوري الذي أكد أن الحصن كان رباعي الشكل وأنه شُيد من الحجر وعلى ارتفاع معقول وسُمك عجيب وأساسات عميقة[١]. بيد إن باربر رجح أن يكون الحصن سُداسي الشكل بناءً على توزيع أعمال نقب الحصن على خمسة مواضع من الجدران التي لغمها المسلمون، مما يرجح توزيع أعمال النقب وفقًا لعدد جدران الحصن[٢]. بيد إن ترجيح باربر غير دقيق؛ لأنه اعتمد في فرضيته تلك على رواية المُؤرخين المسلمين بتقسيم نقب الجدران على خمسة فرق مختلفة، بيد إن الرواية ذاتها أكدت مشاركة بعض الفرق الخمسة في نقب جهة واحدة من الحصن، ولم تُحدد رواية المُؤرخين المسلمين سوى جهتين وهما الشمالية والجنوبية تقريبًا اللتين نقبهما المسلمون[٣]، وجاء وصف المُؤرخين لتوزيع بقية جهات

([1]) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 436–7.

لم تُشر المُصادر إلى عمق أساس الجدران في حصن مخاضة يعقوب، وبالرغم من الحفريات الأثرية التي أجريت في موقع الحصن فلم نقف في نتائجها على مقدار عُمق أساسات الجدران، ولكنها أوقفتنا على أساس جدران القصر الهلليني الذي عثرت بعثة التنقيب على بعض بقاياه في الموقع؛ فقدرت بعض أساسات بعض الجدران بمتر واحد وقُدِّرت أساسات سواها بين متر ونصف ومترين من السطح الحديث. وقد أشار إيلينبلوم في دراسته التي اعتمد فيها على نتائج تنقياته في موقع الحصن إلى أن عتبة جدار الحصن كانت على عُمق من ثلاثة إلى خمسة أمتار تقريبًا. ويبدو أن المعماريين كانوا على دراية بضرورة تصريف المياه من الأساسات، لأنهم ربما تعلموا من تجاربهم أنه يجب تجنب وجود كمية كبيرة من التربة بين الجدران الداخلية والخارجية؛ لأنها ستمتص كمية كبيرة من مياه الأمطار مما يُشكل ضغطًا هيدروليكيًا على الجدران ويتسبب في انهيارها. وتبدو هذه الظاهرة أكثر حدة في منطقة البحر المتوسط، حيث تتركز معظم الأمطار في بضعة أشهر فقط من العام وهو الوقت الذي شرع فيه الصليبيون في البناء. ومن أجل تجنب هذا الخطر فقد قام المعماريون بحفر أساس الجدران على عمق كبير ونقلوا إلى موقع البناء نوعين من التربة: البنية المُكونة من صخور البازلت الغنية بالسمكينيت والفلسبار وكمية أقل من الكاولينيت، والتربة الصفراء الغنية بأنواع مُختلفة من الطين، ويحتوي هذا الخليط على خصائص هندسية وهيدروستاتيكية تعمل على منع تغلغل المياه في الأساسات أو الحد من خطرها. انظر:

Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 269–70.

([2]) Barber, *Frontier Warfare*, p. 10.

([٣]) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٩–١٨٣؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٥..

جهات الحصار ونقب الجدران مُبهمًا[١]، وعلى افتراض صحة فرضية باربر بأن الحصن سداسي الشكل بناء على فرق النقب فإن تلك الفرق لم تزد عن خمسة فرق.

ورجح كيندي استطالة شكل الحصن حينما وضع في الاعتبار أن الصليبيين كانوا يُفضلون بناء القلاع المُستطيلة *Rectangular 'castrum' plan* من نوع العلبة، وهو النموذج الذي فضله الداوية والاسبتارية في بناء قلاعهم؛ لأنها تُشبه الأديرة في قوة تحصينها، ولم يكن يُشيد بداخل هذا النموذج سوى كنيسة وقاعة للطعام وأبنية أخرى مُقببة[٢]، وقد أكدت أعمال التنقيب أن بقايا الفرن كانت تحت سقف مُقبب[٣]. وعلى ما يبدو، فإن هذه الاعتبارات الوظيفية، غير المُتأثرة بالأمثلة الرومانية أو الإسلامية، هي التي دفعت الداوية والإسبتارية إلى تبني خطة بناء القلاع المُستطيلة[٤]. وقد رجحت نتائج التنقيبات التي أجراها إيلينبلوم في موقع الحصن وبخاصة بعد كشفه عن أساس جدران الحصن أنه كان مُستطيل الشكل[٥].

وأكد إيلينبلوم أن عُمَّال البناء والمُهندسين شيدوا الحصن على موقع بناء قديم يعود للحقبة الهللينستية[٦]، وأن المعماريين أدخلوا بقايا أجزاء من جدران مجمع أبنية تعود إلى تلك

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨١، ١٨٩؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٦.

(2) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 57.

(3) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(4) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 57.

(5) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 263.

(٦) عثرت بعثة التنقيبات على بقايا أبنية هللينستية شُيِّدت في موقع الحصن، وتقع تلك المنشأت في الجزء الشمالي من حصن مخاضة يعقوب، وإلى الجنوب من الجدار الجنوبي للحصن، واقتطعت تلك الأبنية في الموقعين الشمالي والجنوبي بسبب الصدع. وقد حدثت إزاحة لبعض الجدران تصل إلى ستة أمتار تقريبًا ربما بفعل زلزال ضرب الموقع في القرن الثاني الميلادي، ولا توجد هياكل عظمية تعود للعصرين الهللينستي والصليبي، وتم التعرف على القطع الأثرية على أنها شموع وأواني طهي وما سوى ذلك تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد. انظر:

Ellenblum, R., Marco, S., Agnon, A., Rockwell, T., and Boas, A., 'Crusader castle torn apart by earthquake at dawn 20 May 1202', *Geology*, v. 26, (1998), pp. 303–6.

الحقبة وربطوا بينها وبين الجدران الخارجية لحصن مخاضة يعقوب[١]. وقد وصف الفاضل في رسالته إلى الخليفة العباسي مدى ضخامة الحجارة التي استخدمت في بناء جدران الحصن، وقدر أحجار البناء بعشرين ألف حجر "...لا يستقر الحجرُ في مكانه، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها..."[٢]. وتم حشو ما بين الوجهين الداخلي والخارجي للجدران بقطع الأحجار الصلبة[٣]، وسُقيت تلك الأحجار بالكلس الذي زاد من صلابة الجدران[٤]. ويُرجح الباحث وفي ضوء ضخامة تلك الأحجار أنها قُطعت من الجبال المُجاورة المُجاورة وأن الصليبيين ربما أجبروا الأسرى المسلمين على العمل في قطعها ونقلها إلى موقع البناء[٥]، تمامًا مثلما أفاد الصليبيون من جنود الجيش في مساعدة المعماريين والحرفيين[٦].

وأشار الأصفهاني إلى شدة ارتفاع جدران الحصن[٧]، وقدر إيلينبلوم ارتفاعها بعشرة أمتار تقريبًا[٨]. وقد أشار كينيدي إلى أن عرض الجدار يُقدَّر بأربعة أمتار ونصف تقريبًا[٩]، وفي هذا مخالفة لما أشارت إليه المصادر الإسلامية التي انفردت بتقدير عرض الجدار بتسعة أذرع نجارية[١٠]، الذي يُساوي ذراعًا ونصفًا من مقدار

---

(1) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(٢) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٨.

(3) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 436– 7.

(٤) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٨.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

(6) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

(٧) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

(8) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(9) Kennedy, *Crusader Castles*, pp. 106, 110.

(١٠) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٨.

الذراع العادي[١]، وهذا يعني أن عرض الجدران تخطى ستة أمتار ونصف تقريبًا. ويرى ويرى كيندي أنه من الممكن تمييز الخطوط العريضة للجدران التي تُوجد على الربوة بجانب النهر في موقع الحصن[٢].

وحرص المعماريون على تجنيب الجدران الضغط الهيدروليكي الناتج عن سقوط الأمطار في شهري نوفمبر وديسمبر وبخاصة مع ارتفاع الجدران إلى عشرة أمتار، ولذا صمم المعماريون نظامًا بدائيًا لصرف مياه الأمطار إلى خارج موقع البناء[٣]. وقد أشار كينيدي إلى أن الجدار الذي الذي شيده الصليبيون لم يكن سوى الجدار الداخلي، وأن الجدار الخارجي لم يُشيَّد حتى وقت سقوط الحصن، واستدل على ذلك بغياب بعض تفاصيل العمارة الحربية السائدة في العصور الوسطى وبخاصة المُرتبطة بالأسوار الخارجية[٤]. وقد خلصت تنقيبات إيلينبلوم ودراساته إلى وصف ذلك الجدار بأنه الجدار الداخلي أو الساتر وليس الجدار الخارجي؛ لأن الصليبيين اضطروا إلى تشييده على عجلة خوفًا من مهاجمة المسلمين لهم في أثناء البناء مما جعل من بناء هذا الجدار أمرًا ضروريًّا من الناحية الأمنية.

وأشار إيلينبلوم إلى أن خطة بناء الحصن تضمنت ثلاث مراحل على أن يكون أولها بناء هذا الجدار الساتر، وعادة ما يتم الانتهاء منه في غضون بضعة أشهر بما يسمح

---

(١) أشار بعض المؤرخين إلى أبعاد الحصن بالذراع، وأكدوا أن المقصود بالذراع المستخدم في الحصن هو الذراع النجاري الذي يساوي ضعفًا ونصف من الذراع العادية على ما أشار ابن الأثير، ويُعرف هذا بالذراع النجارية المصرية. وقد أشارت موسوعة وحدات القياس العربية إلى أن الذراع في القرن الرابع عشر كان يساوي ٧٥ سم. ومن الناحية الهندسية يُقدر الذراع المعماري بـ ٧٥ سم بينما يُقدر الذراع العادي أو البلدي بـ ٥٨ سم. وإذا أخذنا بأن الذراع يساوي ٧٥سم على اعتبار أنه الذراع النجاري فإن عرض الحائط يُساوي ٦.٧٥ ذراعًا تقريبًا. انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٦–٩٧. وأيضًا: هنتز: المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٩٠؛ محمود فاخوري وصلاح الدّين خوّام: موسوعة وحدات القياس العربيّة والإسلاميّة وما يعادلها بالمقادير الحديثة، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م، ص١٢٨.

(2) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 57.

(3) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(4) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 117.

بتطويق موقع البناء وتوفير الحد الأدني من الأمان للمعماريين والحرفيين. بينما تضمنت المرحلتين الثانية والثالثة تشييد الجدار الخارجي والأبنية والمرافق الداخلية بالحصن(١). ورجح إيلينبلوم انتهاء الجدار الداخلي بحلول أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ، في حين خصص المعماريون الأشهر الأربعة التالية لتحسين ظروف الحياة داخل الحصن وتجهيزه لبرودة شهور الخريف والشتاء(٢). وبدأ بناة هذه المرحلة أعمال التشييد انطلاقًا من الزاوية الجنوبية الشرقية للحصن وانتقلوا منها إلى الشمال، ولكن تعرض الحصن آنذاك للحصار والتدمير (٣).

ورفض إيلينبلوم رواية وليم الصوري الواضحة عن انتهاء العمل في بناء الحصن في أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ(٤)، بحجة أن وليم لم يشهد بناء الحصن، وذلك لمغادرته المملكة إلى روما في أكتوبر ١١٧٨م(٥)، ورجح في ضوء التنقيبات التي أجراها توقف أعمال البناء فجأة حينما هاجم المسلمون الحصن في أغسطس ١١٧٩م/ربيع أول ٥٧٥هـ، وأن المعماريين لم يحفروا أكثر من ٧٥% من أساس الحصن(٦). ووفقًا لإيلينبلوم فقد اضطر بلدوين الرابع إلى الرحيل عن الحصن فور اكتمال الجدار الساتر في أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ؛ وذلك لأنه حشد الجيش في موقع الحصن لتأمين أعمال البناء مما كلف الصليبيين مزيدًا من النفقات، وبخاصة مع امتداد المرحلة الأولى من البناء إلى ستة أشهر، وكان من الصعب على فرق الجيش البقاء حتى تكتمل الجدران الخارجية التي ميزت الحصون الصليبية منذ العقد السابع من القرن الثاني عشر(٧).

---

(1) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 264–5; Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 89–90.

(2) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 88.

(3) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(4) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 444.

(5) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 436, 438.

(6) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 264–5.

(7) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

ولذا وبمجرد بناء أول جدار ساتر للحصن، فقد تم الإعلان عن اكتمال بناء الحصن، ورحل الملك والجيش عن موقع البناء لتخفيض النفقات اليومية، وتولت الحامية المُؤلفة من فرسان الداوية مسئولية تأمين المعماريين والحرفيين لإكمال المرحلة الثانية والثالثة[١]. ودعم إيلينبلوم فرضيته بأنه جرى العرف في تلك الفترة على إعلان اكتمال بناء القلاع المركزية عندما يتم الانتهاء من بناء الجدار الساتر أو الداخلي، ودلل على ذلك بقلعة صفد حينما طُوق موقع البناء بجدار ساتر كي تتمكن القلعة من الدفاع عن نفسها، وذلك على الرغم من استمرار أعمال البناء في صفد لفترة طويلة تالية قُدِّرت بعشرين سنة[٢].

ورجح باربر وجود برج شديد الصلابة فوق الجدران الغربية للحصن[٣]، وتبنى إيلينبلوم تلك الرؤية وأكد وجود برج على أحد جدران الحصن[٤]، وأن المعماريين شيدوا برجًا واحدًا فقط فقط فوق الجدار الداخلي وحتى هذا البرج فقد شُيِّد بصفته منصة ثابتة[٥]. ولم يقف الباحث في المصادر المُعاصرة على أية إشارة إلى وجود أبراج على أسوار الحصن، وذلك على الرغم

---

(1) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

(٢) أشار إيلينبلوم إلى أن مفهوم كل من وليم الصوري وأبي شامة عن اكتمال بناء الحصن يختلف عن تصورنا لذلك، واستشهد برواية أسقف مارسليا *Benoiˆt of Marseille's* عن بناء حصن صفد في الفترة ١٢٤٠-١٢٦٠م حينما أشار إلى انتهاء بناء الحصن، ثم أشاد بعد عشرين سنة بالأسوار الخارجية للحصن وأكد وقتها اكتمال بناء الحصن. لذلك يعتقد إيلينبلوم أن مفهوم اكتمال بناء الحصن في العصور الوسطى يقدم تفسيرًا للتناقض الواضح بين النصوص التاريخية التي تصف هذه الحصون بصفتها كيانًا مكتملًا يؤدي وظيفة ما وبين البقايا المادية التي تشهد على حالة الحصن غير المكتملة بالفعل. ويبدو أنه جرى الإعلان عن اكتمال بناء حصون العصور الوسطى، حينما كان يُحيط الجدار الساتر بموقع البناء، وعندها فقط يُسمح للجيش الذي حُشد للدفاع عن المعماريين بالرحيل ومنح مسؤولية تأمين الموقع لحامية الحصن. انظر:
William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 443-4. Cf. also: Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 264-5; Ellenblum, *Frontier activities*, p. 88.

(3) Barber, *Frontier Warfare*, p. 10.

(4) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(5) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

من إشارة الأصفهاني إلى الحصن أحيانًا بالبرج، ولعل هذا ما دفع باربر إلى ترجيح وجود برج في الناحية الغربية من الحصن[١]، بيد إن الأصفهاني وظف مصطلح البرج للدلالة على الحصن، ولم يمزج في وصفه ذاك بين لفظي البرج والحصن بما قد يُفَسر على أنه يُشير إلى البرج بصفته جزءًا من الحصن[٢]، وإنما وظف مصطلح "البرج" للدلالة على حصن مخاضة يعقوب كلية. ولا يعني هذا أن الحصن شُيِّد بلا أبراج؛ لأن بناء الأبراج كان من أهم سمات العمارة الحربية في تلك الفترة[٣]، بيد إنني التزمتُ بما قدمته المصادر عن تلك الإشكالية.

وكان للحصن أكثر من باب على ما جاء في رواية الأصفهاني[٤]، وأكدت أعمال التنقيب وجود خمسة أبواب على الأقل في جدران الحصن مما قلل من قدرة الحصن على حماية نفسه حينما تعرض للحصار[٥]. وبرر إيلينبلوم تعددها للربط بين الفناء الداخلي والجدار والجدار الخارجي للحصن والذي خُطِطَ له أن يُشيد ضمن المرحلة الثانية أو الثالثة من مراحل بناء الحصن[٦]. وقد سهلت تلك الأبواب من حركة نقل مواد البناء والمُعدات والعمال من وإلى وإلى الحصن؛ لأن بناء الجدار الداخلي في مرحلة مُبكرة من عمليات البناء كان من شأنه أن يجعل من الصعب على العربات المُحملة بالحجارة والأخشاب الدخول إلى موقع البناء، وأن يمنع خروج العربات الفارغة، وهذا من شأنه التسبب في زحام بالقرب من الباب الرئيس[٧].

أما شرفات الحصن، فلم أقف لدى المؤرخين المُعاصرين سوى على إشارات عامة ومُبهمة؛ نظرًا لتدمير الحصن عقب استيلاء المسلمين عليه. وقد وظف رجال الحامية تلك

---

(1) Barber, *Frontier Warfare*, p. 10.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٧.

(3) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٨.

(5) Ellenblum, *Crusader Castles,* pp. 268–9.

(6) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(7) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 268.

الشرفات لردع الهجوم الإسلامي على الحصن[١]، ولكن وفقًا للدراسة التي أجراها إيلينبلوم على بعض الهياكل العظمية التي عُثر عليها في موقع الحصن، فإنه يُفهم من تركز بعض الإصابات التي تعرض لها بعض المُصابين من الصليبيين داخل الحصن في الكتفين والفقرات العنقية والرأس[٢] أن حامية الحصن أفادت من تلك الشرفات في إلقاء قوارير المواد الحارقة ورمي السهام من أعلى الجدران على المسلمين في أثناء حصارهم للحصن، مثلما يُفهم ضمنًا من إشارة الأصفهاني اختفاء رُماة الصليبيين في الحصن بحيث لم يجرؤ أحدهم على إظهار رأسه وقت استهداف رُماة المُسلمين لهم[٣].

وحرص الصليبيون على توفير مصادر المياه في الحصن من خلال حفرهم لبئر واسع، وقد أحكموا بناء جوانبه بالحجارة من أسفله إلى أعلاه طيًا ورصفًا له، وقد أشار الأصفهاني إلى توسط البئر للحصن وأن الصليبيين حفروه في الوقت الذي بنوا فيه الحصن[٤]، وقد فشل إيلينبلوم في أثناء تنقيباته بالموقع في الوقوف على موقع ذلك البئر[٥]، وبخاصة أنها كانت فرصة كبيرة كان على إيلينبلوم الإفادة منها للعثور على كثير من الهياكل العظمية؛ نظرًا لما ورد لدى الأصفهاني من إلقاء المُسلمين لجثث عدد كبير من قتلى حامية الحصن ودوابهم في ذلك البئر بعد الاستيلاء على الحصن[٦]. بينما وردت وسيلة حصول حامية الحصن على الماء لدى وليم الصوري مُبهمة؛ لأنه أشار إلى توفر مصادر المياة للحامية[٧] ولكن دون الإشارة إلى الوسيلة التي حصلوا بها عليه سواء عن طريق أحد الينابيع أم بحفر بئر ماء على ما أشار الأصفهاني[٨].

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٢.

(2) Ellenblum, *Weapon injuries*, pp. 147–8.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٧، ١٨٢.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨١؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٦.

(5) Mitchell, Nagar, Ellenblum, *Weapon injuries*, p. 146; Ellenblum, *Crusader Castles*, *Castles*, p. 273; Ellenblum, *Weapon injuries*, p. 146.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨١.

(7) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 437.

(٨) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨١.

وأشار إيلينبلوم إلى عثوره على مكان الفرن في الجهة الشمالية الغربية من الحصن وكان مُغطى بقبو مرتفع[١]. وبديهي أن يقوم الصليبيون بتجهيز حظائر للخيول التي لن يقل عددها عن ثمانين وهو عدد حامية الحصن من فرسان الداوية، وكذا مخازن كبيرة لكميات السلاح الكثيرة التي استولى عليها المُسلمون وقت دخولهم للحصن، إضافة إلى مخازن آمنة لكميات الطعام الضخمة والحيوانات المُخصصة لإطعام حامية الحصن والمعماريين والحرفيين وغيرهم[٢]، ولكن لم يقف الباحث في المصادر المعاصرة على ما يُؤيد ذلك.

ثالثًا: أهم الصعوبات التي واجهت بناء الحصن:

واجه الصليبيون عدة صعوبات في أثناء بناء الحصن ويتصدرها ما ترتب على اقتراب موقع بناء الحصن من دمشق مما اضطر المعماريين والحرفيين إلى العمل في بيئة حدودية مُتوترة وعرضهم للغارات المتكررة التي شنها المسلمون ضدهم، ولأجل ذلك كان بلدوين الرابع مُجبرًا على البقاء بالجيش في موقع البناء لمدة ستة أشهر لتأمينه. علاوة على عدم وجود مركز صليبي قريب يمكن الاعتماد عليه في الحصول على المعماريين والحرفيين ودواب النقل والأدوات والآلات والحبوب وما إلى ذلك مما أجبر الملك على نقل تلك الاحتياجات إلى موقع البناء[٣].

([1]) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

([٢]) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٥.

([٣]) اضطر الاسبتارية منذ عشرين عامًا إلى توفير قوافل في أثناء إعادة بناء بانياس. وقد هاجم نورالدين قافلة المعسكر وأجبر الاسبتارية حينها على التخلي عن بانياس وهونين، ونُظِمت قافلة مماثلة لتأمين بناء قلعة صفد عام ١٢٤٠م. وتكونت من كثير من الفرسان والمشاة والرماة وغيرهم، إضافة إلى دواب لحمل الإمدادات والضروريات المادية الأخرى من غلال وأموال وما إلى ذلك. انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، نشره ووضع فهارسه وقدم له: آمدروز، ليدن، ١٩٠٨م، ص٣٣٩-٣٤٣. وأيضًا:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 258–261. Cf. also: Huygens, R. B. C., '*De constructione castri Saphet', Construction et fonctions d'un cha'teau fort franc en Terre Sainte'* Amsterdam, Oxford, New York (1981), pp. 117–30. Cf. also: Ellenblum, *Frontier activities*, p. 88.

ونتج عن حشد الجيش لستة أشهر في الموقع صعوبات أخرى؛ لأن جيشًا عاطلًا عن العمل في العصور الوسطى كان أمرًا خطيرًا للأعداء والأصدقاء على حد سواء. ولا ريب في أن العديد من الجنود أُرسلوا لمرافقة العمال في استدعاء البنائين وفي بحثهم عن مواد البناء في المناطق المُجاورة للحصن(١). واضطر الملك خلال شهور الشتاء إلى البحث عن مهام مُناسبة للجيش مثل حفظ النظام في موقع الحصن والمناطق المُجاورة، ومن أمثلة تلك المهمات شن حملة على منطقة البقاع *Buqai'a* التي تبعد مسيرة يوم ونصف عن مخاضة يعقوب لاستعادة النظام في الجليل الأعلى ولتخليص المنطقة من اللصوص المحليين(٢). وقد حصل الجيش على غنيمة كبيرة دون تعريضه لخطر مواجهة جيش إسلامي قوي(٣).

ولم تكن تكلفة بناء الحصن هينة، وبخاصة إنها لم تقتصر على الخامات ومواد البناء التي تم نقلها بالكامل إلى حدود بعيدة في منطقة صخرية ووعرة مثل أدوات البناء والمعاول وبعض أنواع الحجارة والصخور والكلس والطين والجير والثيران والحبوب وما إلى ذلك(٤)، وإنما يجب أن يُضاف إليها أيضًا تكلفة إعالة الجيش الذي رابط طوال ستة شهور في الموقع(٥)، وترتب على ذلك مزيد من النفقات، ويبدو أنه كان على الملك أو البارونات

---

(1) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

(٢) واجه الجيش الصليبي عدة صعوبات نتيجة لكثرة من أسماهم وليم الصوري بقطاع الطرق واللصوص الذين قدموا من دمشق ونواحيها، واعتادوا قطع طرق المرور، وعرضوا المعماريين والحرفيين للخطر في الموقع وخارجه، وأغلقوا الطرق أمام المسافرين. ولذا قرر الملك مُهاجمتهم للحد من خطورتهم ولكنهم علموا بخطته، فهربوا إلى دمشق قبيل وصوله إليهم، ومارسوا نهج حياتهم القديم في التعدي والسرقة، وكثيرًا ما كانوا يأتون موقع البناء ويهاجمون الجميع مما دفع بالأهالي إلى نصب أكمنة لهم فوقع بعضهم في الأسر وقتل بعضهم الآخر، وقد حدث ذلك في ٢١ من مارس ١١٧٩م/١٩ من شوال ٥٧٤هـ. انظر:
William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 436–8.

(3) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٣٣٩–٣٤٣. وأيضًا:
William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 258–61. Cf. also: Ellenblum, *Frontier activities*, p. 88.

(٥) مصعب حمادي نجم الزيدي: موقف تنظيمي الاسبتارية والداوية، ص٨٩.

تحملها[١]. وقد سعى باربر إلى تقدير تكلفة تشييد الحصن بناء على المائة ألف دينار التي عرضها صلاح الدين على الصليبيين تعويضًا لهم عن هدمه[٢]. واعتمد كل من باربر وإيلينبلوم على ما ورد في مراسلة الفاضل إلى الخليفة في تقديرهما لتكلفة بناء الحصن بحوالي ثمانين ألف دينار بناء على استخدام ما يقرب من عشرين ألف حجر بتكلفة بناء قدرها الفاضل بأربعة دنانير للحجر الواحد[٣]، ولكنهما أكدا أن نفقات البناء تخطت ذلك بكثير[٤] خلافًا لما ورد برواية الفاضل.

---

(١) لا ريب في أن حشد جيش المملكة لمدة ستة شهور قد أضاف تكلفة أخرى إلى نفقات البناء، وأجبر الملك على تحمل نفقاتهم. وقد أقر يوحنا أبلين عام ١٢٦٥م بأنه حينما كان الأتباع مُضطرين إلى القيام بمهمات خارج المملكة، فإن الملك كان مضطرًا للإنفاق عليهم. وأكد جان ريشارد أن الملك كان مضطرًا للإنفاق على أتباعه ليس فقط خارج المملكة وإنما في حالات تطول فيها الخدمة على حدود المملكة. واعتقد ماير أن الملك كان ينفق على أتباعه في حالات قليلة فحسب، وأن تلك الحملة على حدود المملكة الشرقية كانت تعتبر داخل حدود المملكة. ووفقًا له، فإن الفرسان كانوا ينفقون على أنفسهم في تلك الحملات. وعلى أية حال فإنه تعين على أحدهم سواء أكان الملك أم الأتباع أنفسهم أن يدفعوا لقاء الغياب الطويل للفرسان والمشاة عن بيوتهم، وبخاصة أن الملك كان عاجزًا في أثناء مهمات البناء المُماثلة عن عرض أي مقابل عيني سواء من الغنائم أم هبات الأراضي للإنفاق على الأتباع مقابل جهودهم ووقتهم. انظر:

John of Ibelin, *Le Livre des Assises*, (ed.) Edbury, P. W., (Brill, Leiden, 2003), pp. 595, 615.

Cf. also: Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89; Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 266–7.

(2) Barber, *Frontier Warfare*, p. 10.

(٣) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٨.

(4) Barber, *Frontier Warfare*, p. 10; Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 268.

قَدَّرَ إيلينبلوم عدد الأحجار المُستخدمة في بناء الجدران – وفقًا للأبعاد التي أمدتنا بها المصادر – بحوالي ١٥٠٠٠ حجرًا تقريبًا؛ حيث بلغ طول الجدران حوالي ٢٨٠ مترًا، وبلغ سُمكها حوالي ٤.٣ مترًا، ولم يقل ارتفاعها عن ١٠ أمتار، ويُقدَّر متوسط أبعاد الحجر الواحد بحوالي ٠.٧٥ ×٠.٥٠. وأكد إيلينبلوم أن تقدير تكلفة الأحجار وحدها بثمانين ألف دينار وفقًا لحسابات الفاضل غير دقيقة؛ لأنه لم يضمن هذا المبلغ باقي نفقات حامية التأمين والكلس والأخشاب والعمال والفنيين ونفقات إعالة الجيش ...إلخ ومن ثم ارتفاع تكلفة بناء الحصن عن تقدير الفاضل. بيد أن حسابات إيلينبلوم غير دقيقة؛ لأنه لم يحسب سوى طول الجدران فحسب ولم يضع الأبنية الداخلية في تقديراته، وأخطأ حينما قدر عرض الجدران بحوالي ٤.٣ مترًا؛ لأنها تجاوزت ٦.٧٥ مترًا تقريبًا، وفضلًا عن ذلك، فإن الفاضل كان واضحًا حينما أشار إلى أن تكلفة بناء الحجر الواحد أربعة دنانير بما في ذلك تكلفة البناء من قطع وحمل وخامات ونفقات بناء بعكس ما ادعى إيلينبلوم. وقد رأى الأخير أن الفاضل كان يهدف من تلك العملية الحسابية إلى الدفاع عن صلاح الدين أمام الخليفة بسبب اضطراره إلى عرض هذا المبلغ على الصليبيين. بيد إن هذا القدر من المال لا يكاد يساوي فدية أسير صليبي وقع في أسر المسلمين بعد معركة مرج عيون، ولذا لم يكن صلاح الدين بحاجة إلى أن يُبرر للخليفة عرض مثل هذا المال على الصليبيين؛ لأنه في حال الاتفاق سيتدبر صلاح الدين هذا المال بنفسه ولن تتحمل خزانة الخلافة منه دينارًا. انظر:

Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 268. Note. 29.

وحالما انتهى المعماريون من تشييد الجدار الخارجي في ٢ من أبريل ١١٧٩م/٢٣ من شوال ٥٧٤هـ، فقد قام بلدوين الرابع بمنح الحصن إلى فرسان الداوية[١]، وبخاصة أنهم كانوا السبب الرئيس في إقناع الملك بالتخلي عن اتفاقه مع صلاح الدين وبناء الحصن في ذلك الموقع[٢]. وتؤكد رواية الأصفهاني أنه كان وغيره من المُؤرخين المُسلمين علي وعي بوقوف الداوية خلف بناء الحصن وأنهم أنفقوا عليه من أموالهم الكثير[٣]، علاوة على أنهم كانوا يملكون الكثير من الأراضي والقرى المُحيطة بموقع الحصن، وقد سبق وحصلوا عليها كمنحة من الملوك على ما أشار وليم الصوري وبخاصة قلعة صفد[٤].

وقد تحكمت صفد في شمال الجليل، ولكنها عجزت وحدها عن منع توغل الغارات الإسلامية القادمة من شرق الأردن[٥]. ويُشير باربر إلى أنه بالرغم من وجود هدنة بين الطرفين بالفعل أعقبت معركة مونتجيسارد إلى الشمال الشرقي من الرملة[٦] في نوفمبر ١١٧٨م/جمادى الأولى ٥٧٤هـ[٧] فلم يلتزم أي من الطرفين بشروطها وذلك لأن الصليبيين هاجموا حماة في يوليو ١١٧٨م/ربيع أول ٥٧٤هـ[٨].

---

(1) William of tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 444.

(2) Emoul, *Chronique d'Emoul,* p. 52.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٥.

(4) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 444.

(٥) سبق ومنح الملك عموري للداوية حصن صفد ربما لحثهم على المشاركة في حملاته على مصر. وتُعد قلعة صفد واحدة من أهم قلاع الجليل وطبرية وسيطرت على حركة المرور من خلال معابر الأردن، وسيطر الداوية من خلالها على كثير من القرى والاقطاعيات المجاورة ولكن ضعف دور صفد بعد هدم حصن مخاضة يعقوب. انظر:

Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 545–6, nos. 312, 313, pp. 548–50, no. 314, p. 550, no. 315, pp. 550–3, no. 316, pp. 562–3, no. 325. Cf. also: Barber, *Frontier Warfare*, pp. 18–19; Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 87–92.

(٦) الرملة: مدينة على الساحل الشامي تتسم بالحسن والجمال ومشهورة بالتجارة الرائجة، وتعد أهم ممر يربط بين يافا يافا والقدس، وللرملة سور قوي وقلعة حصينة هدمها صلاح الدين بعد تحريرها من الفرنج. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٣، ص٦٩-٧٠.

(7) Barber, *Frontier Warfare*, p. 15.

(٨) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٢.

وقام الصليبيون قبل رحيلهم عن موقع الحصن في أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ بمد الحصن بحامية من فرسان الداوية قدرتها المصادر بثمانين فارسًا، وهو عدد كبير؛ نظرًا للقدرة الفائقة للفارس المُجهز آنذاك، وفضلًا عن ذلك، فقد شملت الحامية ١٥ مقدمًا أُسنِدت إليهم قيادة خمسين من تابعيهم، وأضف إلى هؤلاء كثيرًا من المعماريين والحرفيين كالحدادين والنجارين والسيوفيين والصَيْقَليين – الذي يقومون بجلي السيوف وشحذها – وصُنَّاع الأسلحة، فضلًا عن مدهم بكميات وفيرة من الطعام تكفيهم فترة طويلة[١]. وقد رجحت دراسة إيلينبلوم عن جروح الأسلحة تراوح أعمار حامية الحصن ما بين العشرين والأربعين عامًا في ضوء الدراسة التي أجراها على عينة من خمسة هياكل عظمية منسوبة لحامية الحصن[٢].

المُفاوضات بين المسلمين والصليبيين على هدم الحصن وأهم تبعاتها

حينما شرع الصليبيون في بناء الحصن، فإن صلاح الدين كان مُنشغلًا بحصار مدينة بعلبك حتى مارس ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ لإجبار ابن المُقدم على تسليمها بعد أن ألحَّ عليه أخيه توران شاه في طلبها، وقد امتنع ابن المقدم عن التنازل عن بعلبك؛ لأنه سبق وتنازل عن دمشق مقابل الحصول عليها[٣]، وقد استغل الصليبيون انشغال صلاح الدين بحصار بعلبك وشيدو الحصن "... وجاء الداوية منهم بأحزابها وشرعوا في بناء حصن على مخاضة بيت الأحزان، وبذلوا في إحكامه ما دخل في الإمكان، وأحكموا بنيان ذلك المكان..."[٤]. وقد أبدى الأصفهاني وعيًا بخطورة امتلاك الداوية للحصن بسبب كرههم الشديد للمسلمين[٥] للمسلمين[٥]

---

(١) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٩.

(2) Ellenblum, *Weapon injuries*, pp. 151–2.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٢.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٤–١٤٥.

(5) *Itinerary of Richard I*, pp. 11, 15–16, 202, 226, 247–249; Delaville Le Roulx, *Cartulaire général*, vol.1, pp. 561–588.

لم تكن ثمن ثقة بين المسلمين وكل من الداوية والاسبتارية وذلك لقسوتهم في محاربة المسلمين وقتلهم الأسرى والمدنيين المُسالمين، ولذا فضل صلاح الدين قتل مقدميهم على استرقاقهم أو فدائهم. ويرى الباحث أن تفسير قيام صلاح الدين بقتل مُقدمي الداوية والاسبتارية بصفته انتقامًا أو لرفضهم دخول الإسلام فيه سذاجة وقصور؛ لأن قتل الداوية جاء بناء على كونهم يُمثلون القوة الضاربة لدى الفرنج، مما دفع صلاح الدين إلى حرمان الفرنج من تلك القوة الضاربة التي يتسم أسلوب المنتسبين إليها بالرعونة والقسوة. أما عرض الإسلام عليهم فإنه عُرف اتبعه صلاح الدين وغيره مع بعض الأسرى المُخالفين لهم في عقيدتهم بحيث كانوا

ومن ثم خطورة تحكمهم في هذا المعبر المهم[١].

ولأجل هذا تفاوض صلاح الدين على هدم الحصن بعد إنهاء مشكلة بعلبك بقليل[٢]، وأكد إيلينبلوم بدء تلك المفاوضات في النصف الثاني من أبريل ١١٧٩م/بداية ذي القعدة ٥٧٤هـ[٣]، وهذا غير دقيق؛ لأن تلك المفاوضات سبقت واقعة همفري في الأول من ذي القعدة/٩ من أبريل قبيل وقوع أي اشتباك عسكري بين المسلمين والصليبيين حول الحصن، مما يرجح وقوع المفاوضات في الفترة ما بين منتصف مارس و ٩ من أبريل ١١٧٩م. وسواء استهل صلاح الدين مفاوضاته مع الجانب الصليبي قبل وصوله إلى موقع بناء الحصن أم وقت وجوده في الموقع بالفعل فإننا لم نقف على تاريخ تلك المُفاوضات.

أما سبب المفاوضات فقد أكدت رواية ابن الأثير أن هدم الحصن كان أهم أهدافها تجنبًا لخطورة الحصن على ممرات العبور "...وكان قد بذل للفرنج ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال، فلم يفعلوا، ظنًا منهم أنه إذا بقي بناؤه تمكنوا به من كثير من بلاد الإسلام..."[٤]، وأكد الأصفهاني أن صلاح الدين تفاوض على هدم الحصن لظنه أن قوته وارتفاعه ستحول دون الاستيلاء عليه[٥]. وتطرقت رواية ابن أبي طي إلى الهدف ذاته من المفاوضات بإيجاز شديد بقوله: "...كانت الفرنج قد عَمَرَتْ بيت الأحزان... فراسل السلطانُ الفرنج في هَدْمه، فأجابوا أنه لا

يعرضون عليهم الإسلام قبيل قتلهم ولم يختص به الداوية وحدهم. انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص٥٣، ٥٥؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ص١٥٢–١٥٤. وأيضًا: Delaville Le Roulx, *Cartulaire général*, vol.I, pp. 527–67. Cf. also: Gabrieli, *Arab Historians*, pp. 133–4.

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

(٢) يرى كل من ليون وجاكسون أن الأوضاع المُعقدة لدى المسلمين التي ترتب عليها محاصرة صلاح الدين لمدينة لبعلبك مكنت الصليبيين من بناء الحصن، وأنه في ظل ظروف مغايرة ربما تصدى لهم صلاح الدين ومنعهم من تشييد الحصن أو على الأقل حاول عرقلة عملية البناء. وإن كنت أظن أن ما حدث في بعلبك كان من الأمور المألوفة التي ظل صلاح الدين يواجهها طوال سلطنته ولم تؤثر على سياسته أو مواقفه إزاء الصليبيين، ولعل موجة الجفاف التي استمرت طوال هذا العام ولبضعة أعوام تالية كانت أكثر أثرًا في منع صلاح الدين من التعرض للصليبيين في أثناء بناء الحصن لنقص الموارد، ولم يقم صلاح الدين بمحاصرة الحصن بشكل جدي وفعال سوى حينما قام بتأمين المؤون. انظر:
Lyons, Jackson, *Saladin,* pp. 131–3.

(٣) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 267.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٦. وأيضًا: نبيلة مقامي: فرق الفرسان الرهبان، ص٩٣.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

سبيل إلى هدمه إلا أن يعطينا ما غرمنا عليه، فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا، فزادهم إلى أن بلغ مئة ألف دينار، وكان هذا الحصن للداوية..."[١].

وتؤكد رواية ابن أبي طي أن صلاح الدين لم يعرض المال على الصليبيين سوى بعد طلبهم تعويضًا عن تكلفة بناء الحصن وأكد رفضهم لكافة عروض صلاح الدين في النهاية، بما يرجح أن الصليبيين قبلوا مبدأ التفاوض على المال بهدف استهلاك الوقت لاستكمال بناء الحصن، وجاءت رواية أبي شامة مُؤكدة لرواية ابن أبي طي بأن السلطان بذل لهم في هدمه ستين ألف دينارًا فلم يفعلوا فزادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا[٢]. وأوضح البنداري أن السلطان تفاوض على هدم الحصن لحرصه على تأمين المارة وهو مبرر كافٍ لهدم الحصن في ظل المُعطيات الأخرى التي أفاد بها رجاله وقادته عن خطورة بناء الحصن[٣].

وبالرغم من وقوف صلاح الدين على أخبار البناء فإنه لم يترك حصار بعلبك، وخاض عدة مناقشات مع مجلس مشورته لأجل ذلك، وقد أشار الأصفهاني إلى أن صلاح الدين برر عدم تحركه لهدم الحصن على الفور منذ منتصف مارس/الأول من ذي القعدة بأنه كان يُفضل الانتظار ريثما ينتهي حصار بعلبك لصالحه حتى وإن اكتمل بناء الحصن "...إذا أتموه وأحكموه وظنوا أنهم من الحدثان أنموه وعصموه رحلنا إليه ونزلنا عليه، وهدمناه من الأساس وجعلناه من الرسوم الأدراس، وغنمنا أسبابهم وضربنا رقابهم، فندعهم الآن حتى يستنفدوا فيه أحوالهم وينفقوا أموالهم، ويتعبوا رجاءهم ورجالهم، فإذا قصدناهم عكسنا آمالهم وأنحسنا مآلهم..."[٤]، وأرى أن هذه الخطة نجحت في استنفاذ مجهود الصليبيين وطاقتهم النفسية والمادية؛ بسبب طول فترة الحشد وقضاء فصل الشتاء في حالة استعداد وتأهب طوال فترة بناء الحصن.

بيد إن هذا المبرر لم يكن مُقنعًا لمجلس مشورة صلاح؛ لأنهم كانوا على قناعة بأن منع البناء من الأساس سيكون أكثر ملائمة "...فنقول: منعهم من الابتداء أسهل من الدفع في الانتهاء، وإذا

---

(١) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٨.

(٢) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٦.

(٣) البنداري: سنا البرق، ص١٧٠.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٤-١٤٥.

فات الفارط لا يُستدرك وهو الآن هين فلا يُترك، وإذا خرج ما في اليد فمتى يُملك..."[١]، ولكنهم آثروا التزام الصمت، وحتى رواية الأصفهاني التي تأتينا من قلب الحدث، فإنه دونها في فترة تالية وتأثرت بما حدث فيما بعد حينما استولى صلاح الدين على الحصن، وارتبطت روايته التي اتسمت بالثقة في موقف صلاح الدين بدرايته بأن المسلمين أسقطوا الحصن بالفعل[٢].

وقد أشار مصعب الزيدي إلى حرص صلاح الدين على تفادي التضحية بجنوده مما حثَّه على التفاوض على تدمير الحصن[٣]، ويؤيد هذا الافتراض أن الصليبيين في المملكة وأنطاكية وطرابلس علاوة على كل من الداوية والاسبتارية كانوا يدعمون الملك في بناء الحصن واحتشدوا بفارسهم وراجلهم في الموقع وبخاصة في الأيام الأولى من عمليات البناء[٤]، ناهيك عن الجدب العام والقحط الذي ساد بلاد الشام بعامة ودمشق بخاصة[٥]، وما ترتب على ذلك من ارتفاع الأسعار وندرة الأقوات "...وكان العام مجدبًا والجدب عامًا...وللأسعار أسعار وللأسرار استشعار وللأقوات أقواء وللغلات غلاء وللبلاء بلاء... وعلى العباد من ثقل المحل أعباء..."[٦]، وقد ظلت تلك الأزمة قائمة لخمس سنوات تالية، وهي أمور ليست هينة كي يتجاهلها صلاح الدين الذي اتسمت خطواته آنذاك بالواقعية ولذا كان من الصعب عليه الاشتباك ضد الصليبيين لمنعهم من بناء الحصن[٧]. ولا يمكن تجاهل

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٥.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٥-١٤٦.

(٣) مصعب الزيدي: موقف تنظيمي الاسبتارية والداوية، ص٩٠.

(4) Delaville Le Roulx, *Cartulaire général*, vol. 1, pp. 379–80, no. 559; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 692–3, no. 406, pp. 697–8, no. 408; Müller, *Documenti*, pp. 17–18, no. 15; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239–47, no. 28.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٣-١٥٤، ١٥٨؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٣.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٥. وأيضًا: ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٣.

(٧) يبدو أن أزمة الجدب كانت حادة وكان لها عدة آثار سلبية، ولذا تغيرت لهجة الأصفهاني حينما نزل المطر ونضجت المحاصيل وبخاصة مع كرم السلطان الذي طال الجميع، وكتب الأصفهاني إلى القاضي الفاضل

تجاهل مشكلة بعلبك وأثرها في غل يد صلاح الدين بعدما أظهر العداء لابن المقدم، ولم يكن باستطاعته إعلان فشله في حصار بعلبك وإلا ظهر ضعيفًا ومترددًا أمام جنوده مما يضر بخططه ومشروعاته المستقبلية.

ويمكن إضافة عامل آخر دفع بصلاح الدين إلى انتهاج التفاوض تمثل في بعض المُثبطين في معسكره الذين كانوا يرون أن بلاد الشام عاجزة عن استيعاب تلك الأعداد الكثيرة من الجنود، وهو ما يُؤدي إلى حدوث تلك الأزمات التي تتعرض لها البلاد "...وقيل لا قبل للشام بالعساكر الكثيرة، والكتائب الكثيفة، فإن الجموع تثوي والزروع تتوى، والضياع يطرقها طارق الضياع... ونسوا النصح المنبيء عن هدم الحصن المبني وهده...". بيد إن صلاح الدين لم ينزعج من تلك العناصر المُثبطة بقدر سعادته بحدوث انفراجة مؤقتة في أزمة الجدب والغلاء، بحيث وصف الأصفهاني للفاضل تحسن الحالة النفسية للسلطان بدليل عزمه على معالجة موضوع حصن مخاضة يعقوب عقب انفراج أزمة الجدب[١]. وأكد الأصفهاني أن قوة الحصن وارتفاعه جعلت صلاح الدين يتفاوض على هدمه[٢]، وبخاصة، إن بناء الحصن في ذلك الموضع يخالف الاتفاق السابق بينه وبين بلدوين الرابع[٣].

على أن عدم تعرض المسلمين للصليبيين الذين يُعيدون تشييد قلعة هونين *Hunin* [٤] القريبة منهم في الوقت ذاته، مع إصرار المسلمين على هدم حصن مخاضة يعقوب طرح

وكان وقتها في الحج مُبشرًا إياه بانفراج أزمة الجدب مؤقتًا، ولكنه سيعاود الشكوى منها عدة مرات خلال السنوات التالية. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٥-١٤٧، ١٥٣-١٥٤، ١٥٨، ١٦٧-١٦٨. وأيضًا: ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٣.

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص٢٤٦.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

(3) Ernoul, *Chronique d'Ernoul*, p. 52.

(4) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 444.

كثيرًا من التساؤلات حول هذين الموقفين المتناقضين على ما ذهب إيلينبلوم[١]. ويُعد وليم الصوري من أهم المؤرخين المُعاصرين الذين أشاروا إلى إعادة بناء قلعة هونين[٢] في روايته عن نقل الكونستابل الملكي همفري أوف تورون إليها بعد إصابته بجراح مميتة في ٩ من أبريل ١١٧٩م/الأول من ذي القعدة ٥٧٤هـ. بيد إن وليم أشار تاليًا إلى نقل همفري إلى قلعته تورون ليدفن بها في ٢١ من أبريل ١١٧٩م/١٣ من ذي القعدة ٥٧٤هـ[٣].

([1]) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 87; Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 262–3.

([٢]) أشار وليم الصوري في منتصف أبريل ١١٧٩م إلى أنه بينما كان الفرنج منهمكين في بناء حصن مخاضة يعقوب فإنهم حملوا الكونستابل الملكي همفري أوف تورون جريحًا إلى القلعة الجديدة هونين أو *Castellum Novum* ، ولم يسم وليم الصوري القلعة الجديدة باسم مخاضة يعقوب لأن وليم الصوري يُشير أحيانًا إليها بكاستيلا نوفا. انظر:

William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 439–40. Cf. also: Ellenblum, *Frontier activities*, p. 87.

قلعة هونين *Castellum Novum* : من قلاع الصليبيين التي وصفت بالقوة والمنعة، وقد هاجمها نورالدين محمود سنة ٥٦٢هـ وحينما عجز الصليبيون عن حمايتها، فإنهم أحرقوها وتركوها، ولما وصل إليها نورالدين فإنه هدم أسوارها، ويبدو إنها ظلت على تلك الحالة حتى عصر الملك بلدوين الرابع حيث أشار وليم الصوري إلى أعمال البناء التي كانت مستمرة بها وقت وفاة همفري أوف تورون، كما أشار إليها تاليًا الرحالة ابن جبير حينما مر بالمنطقة سنة ١١٨٤م وأكد أنها ما زالت بأيدي الصليبيين، واستسلمت حامية القلعة للمسلمين بعد حطين في أواخر عام ١١٨٧م، ثم خضعت للصليبيين مرة أخرى عام ١٢٤٠ وظلت خاضعة لهم إلى أن طردهم منها الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٦. وقد أشار إليها ياقوت الحموي (ت: ١٢٢٩م) بأنها قرية واقعة في جبال عاملة على طرف منحدر يُشرف على الشطر الشمالي من سهل الحولة. ويُشبه موقع قلعة هونين إلى حد كبير موقع حصن مخاضة يعقوب، حيث بُنيت على جبل شديد الانحدار فوق وادي الحولة، وأشرفت على طريق التجارة عبر كل من صور وتبنين ودمشق. وكان الطريق المُحتمل الآخر *Via Maris* والذي يعبر الأردن عند مخاضة يعقوب. ومن الناحية الاستراتيجية فإن الحصنين كانا متشابهين للغاية، وشُيدا في الوقت ذاته. انظر: ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٢٧٣–٢٧٤؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٤٢٠. وأيضًا:

Ellenblum, *Frontier activities*, p. 87; Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 262–3.

([3]) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 444.

ولكن إذا كان همفري قد أُصيب بجراح مميتة في بانياس، فهل كان من الأقرب له أن ينقل إلى حصن مخاضة يعقوب أم إلى حصن هونين؟ لا ريب في أن هونين كانت أقرب إلى موقع المعركة في بانياس من حصن مخاضة يعقوب ومن حصن تورون نفسه الذي نقل إليه همفري ليدفن فيه؛ لأن حصن هونين يُشرف على بانياس وبينها وبينه ثلاثة فراسخ، ودارت غالبية المعارك والاشتباكات بالقرب من هونين وليس مخاضة يعقوب طوال عام ١١٧٩م/٥٧٤-٥٧٥هـ مما يعني أن المسلمين لم يتجاهلوا أعمال البناء في هونين كما افترض إيلينبلوم، علاوة على أن تلك المنطقة خضعت لشروط بلاد المناصفات على ما أشار ابن جبير مما يمنح المسلمين مبررًا لعدم مهاجمة هونين(١).

وقد تجاهل إيلينبلوم تلك الاعتبارات ليؤكد أن تفاوض المسلمين على هدم حصن مخاضة يعقوب بشكل خاص يعكس عدم أهمية هونين إليهم؛ لأنها ليست ضمن حدودهم، بينما كان حصن مخاضة يعقوب مُهمًا للمسلمين؛ لأن الصليبيين شيدوه داخل الحدود الإسلامية مما استفز المسلمين وحركهم للتفاوض على هدمه(٢). وأردف إيلينبلوم أن حماسة بلدوين الرابع لمقترح الداوية ببناء حصن مخاضة يعقوب وعدم قبول التفاوض مع المسلمين على هدمه دليل قويٌّ على وقوع الحصن ضمن حدود المسلمين(٣)، وأن بلدوين الرابع لم يكن مُضطرًا إلى توقيع هدنة مع المسلمين لمنعه من تحصين حدود مملكته في مخاضة يعقوب بعد انتصاره في مونتجيسارد، إلا إذا كانت مخاضة يعقوب داخل حدود المسلمين(٤). كما

---

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٢٧٣-٢٧٤.

(2) Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 87, 91-92.

(3) Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 86-87, 91-92.

(4) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 86.

ذهب إيلينبلوم إلى أن الثغر هو أي مكان حيوي يواجه عدو مجاور، وتسود به سياسة معينة ووضع قانوني خاص بسبب خصوصيته عن نظيره في الحكومة المركزية، حيث تتوفر القوة الكافية لفرض الأمن والنظام بخلاف الوضع في الثغور. وهكذا فإن الثغر مساوي للتخوم *March* الأوربية، أو الليمز *Limes* الرومانية والذي يعني

ذهب إلى جانب روحي آخر جعل من حرص المسلمين على استعادة السيطرة على موقع الحصن مسألة بالغة الأهمية؛ نظرًا للمكانة الدينية للموقع بصفته مزارًا إسلاميًّا مُقدسًا وجب على المسلمين عدم التفريط فيه وهذا في حد ذاته يُؤكد وقوع الحصن ضمن الحدود الإسلامية وأن تردد المسلمين على هذا المزار قبل بناء الحصن وبعد تدميره يؤكد ذلك[١].

وتمسك إيلينبلوم بهذا الطرح وعرضه في معظم دراساته عن حصن مخاضة يعقوب، وأقر بناء عليها أن مفاوضات صلاح الدين على هدم الحصن جاءت نتيجة لخوفه من هزيمة أخرى تفوق هزيمته أمام الصليبيين في مونتجيسارد ١١٧٧م/٥٧٥هـ. ويرى الباحث أن إيلينبلوم لم يكن موفقًا في غالبية افتراضاته عن تفاوض المسلمين على هدم الحصن؛ بسبب وقوعه ضمن حدودهم، وبخاصة أنه اعتمد على كل من أبي شامة وأرنول[٢] مؤرخا القرن الثالث عشر في دعم فرضيته على الرغم من أنه لم يقف على بغيته لدى المؤرخين المُعاصرين مثل الأصفهاني والفاضل وابن الأثير وابن شداد ووليم الصوري. وحينما استشهد إيلينبلوم برواية أبي شامة التي جاء فيها "...وكان هذا الحصن للداوية، وكانوا يقوون من فيه بالأموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين..."[٣] فإنه لم يتمكن من فهمها على حقيقتها؛ لأن تشييد الحصن في هذا المكان سواء داخل الحدود الإسلامية أم الصليبية سيؤدي إلى النتيجة ذاتها أي تهديد الثغر الإسلامي.

وقد وقف الباحث لدى المؤرخين المعاصرين على توصيف مقارب لما ورد في رواية أبي شامة منه قول الأصفهاني: "...ولو بقي الحصن لم يحصن البقاء، ولدنا من البلاد

منطقة ذات وضع قانوني خاص. ويشير مصطلح ثغر، مثل نظيره الأوربي، إلى واقع سياسي مُعقد أكثر من كونه خط حدودي في المفهوم المعاصر. انظر:

Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 86–7.

([1]) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 85.

([2]) Ernoul, *Chronique d'Ernoul*, p. 52.

([٣]) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٨.

البلاء، ولأعضل بقرب الداوية الداء..."[١]، وفي النص إشارة أكثر وضوحًا من رواية أبي شامة التي اعتمد عليها إيلينبلوم تؤكد أن اقتراب الحصن من ممرات الأردن كان كفيلًا بإزعاج المسلمين من المارة وتهديد البلدان القريبة ليس لأنه حصن صليبي فحسب، ولكن بسبب امتلاك الداوية له. وتؤكد رواية أخرى للأصفهاني مفادها "...وكنا نقول للسلطان متى أُحكم هذا الحصن تحكم من الثغر الإسلامي الوهن وعلق الرَهن، فإن بينه وبين دمشق مسافة يوم..."[٢] مدى انتباه الأصفهاني للخطورة الكبيرة التي سيمارسها الحصن على الثغور الإسلامية القريبة من ثغور الصليبيين التي شيدوا بها حصنهم.

وإذا كان إيلينبلوم يرى في اقتراب الحصن من دمشق مسيرة يوم دليلًا على وقوعه ضمن حدود المسلمين، فإنه كان بين الحصن وكل من قلعتي صفد وتورون الصليبيتين مسافة نصف يوم، بمعنى إنه كان أقرب للصليبيين وحدودهم من حدود المسلمين. وتؤكد رواية ابن الأثير أن الصليبيين كانوا يسعون إلى جعل الحصن شوكة في حلق المسلمين، وأنهم شيدوه للتمكن من بلدانهم[٣]، بمعنى أن الضرر الذي سيقع على المسلمين المارين بالمكان سيحدث سواء شُيد الحصن ضمن الحدود الإسلامية أم سواها مثله مثل بقية الحصون الصليبية الأخرى المُشيدة في المنطقة خلافًا لفرضية إيلينبلوم[٤]، وهو السبب ذاته الذي دفع بالصليبيين إلى تشييد الحصن في هذه المنطقة لإزعاج المسلمين على ما رأى بعض قادة صلاح الدين أنفسهم[٥].

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٦.

(4) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 87.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٥.

وفضلًا عن ذلك، فقد وصف ابن الأثير كافة الغارات التي انطلقت من معسكر صلاح الدين في بانياس إلى غرب نهر الأردن بأنها كانت ضد بلاد العدو[١]، وحينما هب الصليبيون للتصدي لفرخشاه قبيل واقعة همفري ومرج عيون، فقد وصف ذلك بأنه جاء دفاعًا عن الحدود الصليبية في تلك المنطقة، وأكد وليم الصوري بأن التصدي لغارات صلاح الدين على موقع الحصن كان دفاعًا عن الحدود الصليبية بالرغم من كثرة سكانها من المسلمين[٢]، وكان ابن جبير واضحًا في وصف المنطقة في هذا الإطار[٣]. أما اضطرار الصليبيين إلى الموافقة على الهدنة التي منعتهم من تحصين هذا الموقع، فقد أشار إليها كل من أرنول[٤] وابن الأثير[٥]، ولكنهما لم يُحددا إذا ما كان موقع الحصن ضمن ما اتفقا عليه، بمعنى إن الاتفاق جاء مُبهمًا ولا ينبغي أن يُفهم منه أن أعمال البناء في هذا الموقع – وربما في موقع هونين وأي موقع حدودي آخر – كانت داخلة في الاتفاق بين الطرفين.

وفضلًا عن ذلك، فإن الحد الطبيعي الذي يتسق مع نهر الأردن جعل من حدود المسلمين شرق الأردن أمرًا طبيعيًّا، وقد ورد في بعض وثائق المملكة والإسبتارية أن بعض قرى طبرية والناصرة التي تقع شرق الأردن كانت في حوزة المسلمين، بينما وقعت غالبية قرى غرب الأردن بحوزة الصليبيين[٦]. وربما هذا ما دفع باتفاقات بلاد المناصفات[٧] إلى الظهور

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٥.

(2) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 437–8, 468–72.

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٢٧٤–٢٧٥.

(4) Ernoul, *Chronique d'Ernoul*, p. 52.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٢.

(6) Delaville Le Roulx, *Cartulaire general*, vol. 2, pp. 897–8, no. 1; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 1, pp. 124–5, no. 20.

(٧) بلاد المناصفات: هي مناطق تتميز بوجود إدارة مشتركة من المسلمين والصليبيين على مناطق الحدود المتنازع عليها. انظر: ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٢٧٣–٢٧٤. وأيضًا: عمر كمال توفيق: الدبلوماسية الإسلامية

الظهور في تلك المنطقة لتجنيبها وأهلها صراعات لا طائل منها على الجانبين[١]. وإضافة إلى ما سبق، فإن افتراض وقوع الحصن ضمن الحدود الإسلامية – والربط بينه وبين إصرار المسلمين على مهاجمته – مع حرص صلاح الدين على مهاجمة قلعة الكرك والشوبك بشكل دائم ومستمر بالرغم من عدم وقوعهما ضمن حدود المسلمين وإنما ضمن حدود الصليبيين[٢]؛ ولأن الكرك كان خطرًا على حركة المرور في جنوب شرق المملكة من وإلى مصر، فقد خشى صلاح الدين أن يكون لحصن مخاضة يعقوب الأثر نفسه على حركة المرور عبر الممر المُؤدي إلى وادي الأردن الأعلى وأحد أهم همزات الوصل بين دمشق ومصر[٣]، ولذا باتت خطورة حصن مخاضة يعقوب لا تقل عن خطورة كل من الكرك والشوبك.

أما ادعاء خوف صلاح الدين من مُواجهة الصليبيين تأثرًا بخسارته في مونتجيسارد، فمردود عليها بأن انتصاره في واقعة همفري ومرج عيون حول دفة الحوادث لصالحه[٤]، وقد أعرض إيلينبلوم عن معالجة هذين الصدامين العسكريين في دراساته عن الحصن وكأنه لا أثر لأي منهما[٥]؛ وذلك على الرغم من أنهما شكل عامل حاسم في تطور علاقات صلاح الدين بالصليبيين آنذاك وتاليًا، وطغى أثرهما على هزيمة مونتجيسارد وكرس لشكل جديد من

والعلاقات السلمية مع الصليبيين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص٧٧-٨٧، ١٩٤-١٩٨، ٢١٤، ٢١٩-٢٢٨.

(1) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 266-7.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص١١٠، ١٢٤، ١٢٧-١٢٨، ١٤٣-١٤٤.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠. وأيضًا:

Smail, *Crusading Warfare*, p. 207.

(4) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 440-3.

وأيضًا: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٩؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٢.

(5) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 270-4.

المواجهات بين الطرفين، وأكد وليم الصوري مدى جسامة الخسارة التي عانى منها الصليبيون نتيجة لهاتين المعركتين(١).

أما تبرير حماسة بلدوين الرابع لبناء الحصن وعجلته في تنفيذ ذلك بزعم أن الحدود لم تكن من أملاك الصليبيين، فمبرر غير واقعي؛ لأن بناء الحصن في تلك المنطقة الحدودية المُتوترة يستدعي الحماسة لإتمام البناء قبل تدخل صلاح الدين فيفشل المشروع برمته، ومن ثم، كانت الحماسة مطلوبة مثلما كانت حماسة صلاح الدين وتسرعه من الأمور البديهية للاستيلاء على الحصن وتدميره في أغسطس ١١٧٩م/ربيع أول ٥٧٥هـ قبيل وصول التعزيزات الصليبية(٢)، فهكذا فرص لا تتوفر كثيرًا ويجب استغلالها بحماسة كبيرة.

وعلى الرغم من أن ملابسات واقعة همفري ومعركة مرج عيون تُشير إلى دراية المسلمين بتلك المنطقة أكثر من دراية الصليبيين بها، فإن هذا لا يعود إلى كون المنطقة ضمن حدود المسلمين بقدر جهل الصليبيين أنفسهم بجغرافيتها، وبخاصة إن الصليبيين وقعوا في أخطاء استراتيجية كثيرة وحُوصروا أكثر من مرة في ممر جبلي ضيق وعرضوا ملكهم وفرسانهم للخطر(٣)، بينما نجح المسلمون في الإغارة على الحصن وصفد وطبرية وتبنين وصور وحصدوا غلالها وخاضوا معاركهم فيها دون أن يقترفوا أخطاءً مماثلة، وهو ما يُمكن توظيفه لدعم فرضية إيلينبلوم عن كون المنطقة كانت مطروقة للمُسلمين، ويعرفونها عن ظهر قلب؛ لأنها واقعة ضمن حدودهم، ولكنها فرضية قابلة للتأويل على الجانب الآخر وبخاصة

---

(1) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 440–3.

(2) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 444.

وأيضًا: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٩.

(3) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 440–3.

مع قبول افتراض باربر بأن تأخر الصليبيين في تحصين هذا الموقع نتج عن غموض هذه المنطقة بالنسبة لهم(١).

ويدعم هذا الرأي أن الصليبيين لم يكن لهم وجود في تلك المنطقة، وبخاصة أنهم – ولحل مشكلات الحدود– ارتضوا ببلاد المناصفات التي تركت الأرض بأيدي أهلها من المسلمين مقابل ثلث عائدها، ولذا أصبح الصليبيون أقل دراية بالمكان وتضاريسه، وهو الأمر عينه الذي سمح لمجموعة من اللصوص بسكنى تلك المنطقة ومارس هؤلاء ضغطًا أمنيًا على الصليبيين وقت تشييد الحصن(٢). ولا ريب في أن تخلي صلاح الدين عن بعض رجاله وعلى رأسهم تقي الدين عمر في أوج أزماته مع الصليبيين حول الحصن، حينما أرسلهم إلى رعبان التي تقع ضمن حدوده لحمايتها من قلج أرسلان(٣) ولم يفعل ذلك مع الصليبيين وقت بناء الحصن لخير دليل على أن موقع الحصن لم يكن ضمن الحدود الإسلامية(٤).

الحوادث العسكرية التي سبقت حصار الحصن:

حالما أنهى صلاح الدين مشكلة بعلبك في أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ، فإنه سلمها لأخيه وتوجه إلى دمشق ولم يشغل باله سوى الحصن وفقًا لرواية الأصفهاني الذي كان معه آنذاك(٥). وقد أشار باربر إلى أن صلاح الدين ارتاح في دمشق يومًا واحدًا ثم أغار على الحصن بهدف استطلاع أخباره(٦)، بيد أن رواية الأصفهاني تُؤكد أن صلاح الدين قضى وقتًا أطول في دمشق وقد انشغل خلال تلك الفترة بالحصن وكيفية تدميره، ولكنه واجه بعض الصعاب التي أجبرته على التريث في مهاجمة الحصن، وبخاصة أن الجفاف الذي حل

---

(1) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 15–6.

(2) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 436–8.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٣–١٧٤.

(٤) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢١.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٢.

(6) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 10–11.

بدمشق وما حولها قضى على موارده. وبالرغم من ذلك، فإن إقامة صلاح الدين في دمشق لم تطل، وبخاصة إن بعض المؤرخين أكدوا أنه أغار وللمرة الأولى على الحصن لاستطلاع أخباره وبرفقته مبعوث الخليفة والتي كانت بعد عدة أيام من عودته لدمشق(١).

بيد إن الأهم من تلك الغارة أنه اضطر إلى الاشتباك ضد الصليبيين فيما يعرف لدى المؤرخين المسلمين بواقعة همفري، وذلك قبل أن يُغير على الحصن عدة مرات متتالية ويشتبك ضدهم في معركة مرج عيون. بيد إننا أمام إشكالية مهمة مفادها تجاهل بعض المؤرخين المُحدثين لحوادث كل من واقعة همفري ومرج عيون التي سبقت سقوط الحصن. وتعمَّدَ إيلينبلوم هذا التجاهل بالرغم من حرصه الشديد على توظيف الأثر السلبي الذي تركته معركة مونتجيسارد على المسلمين، بحيث جعل من عدم اعتراض المُسلمين على بناء الحصن في تلك المنطقة أحد نتائج مونتجيسارد، واتهم صلاح الدين بالتفاوض مع الصليبيين لهدم لخوفه من مواجهة الصليبيين للأمر ذاته(٢)، بمعنى أنه بالغ في توظيف نتائج معركة مونتجيسارد، بينما تغاضى عن معالجة حوادث واقعة همفري ومعركة مرج عيون – وما تخللهما من غارات – على الرغم من أنهما مهدا وبشكل كبير لسقوط الحصن وتسببتا بعدئذ في غلبة كفة المسلمين(٣).

وفي الوقت الذي جعل فيه وليم الصوري من **واقعة همفري** مجرد خطأ تكتيكي تعرض له الصليبيون، وقتل نتيجة بعض وجوه الصليبيين ومن أبرزهم الكونستابل الملكي همفري وغيره؛ بسبب اندفاع الصليبيين في مطاردة بعض الرعاة التركمان في بانياس، فقد أشار كل من الأصفهاني وأبي شامة إلى خوض المسلمين لها لمنع الصليبيين من مهاجمتهم على الحدود قرب بانياس في أعداد كبيرة، وبخاصة بعدما أنهى صلاح الدين مشكلة بعلبك وتفرغ

---

(١) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٢.

(2) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 86–9; Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 267.

(3) Barber, *Frontier Warfare*, p. 15.

لهم وجعل الحصن هدفًا له[١]. وأكد ابن الأثير أن مهاجمة الصليبيين لأعمال دمشق وتسببهم في خسائر مادية وبشرية اضطر صلاح الدين إلى الدفع بابن أخيه عزالدين فرخشاه بن شاهنشاه للتصدي لهم، مما يضع تلك المعركة ضمن المواجهات التي تحتم على المسلمين خوضها تمهيدًا للاستيلاء على الحصن عقب فشل المفاوضات بين المسلمين والصليبيين بخصوص هدم الحصن منذ أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ[٢].

وقد وجه صلاح الدين فرخشاه على رأس فرقة استطلاعية للوقوف على أخبار الصليبيين[٣] وأمره بعدم الاشتباك مع الصليبيين خوفًا من كثرتهم وأن يقتصر على استفزازهم كي يجبرهم على الابتعاد عم مراكز ثقلهم وحصونهم، ولكن الصليبيين ظهروا أمامه فجأة فاضطر إلى الاشتباك معهم ولم يلزم النصيحة بعدم المخاطرة[٤]. وبالرغم من إشارة وليم الصوري إلى تغلب الصليبيين في البداية على فرخشاه ورجاله ودفعهم للهرب، فإنه أكد أيضًا أن اندفاع الصليبيين وبخاصة الفرقة المُرافقة للملك بغير وعي في مطاردة المسلمين قادهم إلى وادي ضيق، فاضطر المُسلمون إلى الدفاع عن أنفسهم وانقلبت المعركة لصالحهم وأوشك المسلمون على قتل الملك ولم ينقذه سوى تدخل همفري وأبراهام الناصري[٥]، وانسحب الملك إلى معسكره واستدعى فرق جيشه التي دبت فيها الفوضى[٦].

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٩؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٣-٩٤.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٩.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٩؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٢.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٠.

(6) William of tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 438–9.

ويرى الباحث أن انتصار المسلمين في تلك المعركة طغى على انتصار الصليبيين عليهم في مونتجيسارد؛ لأنها كسرت حاجز التردد والحذر لدى المسلمين في مواجهة الصليبيين. وإذا كان ترجيح إيلينبلوم في محله عن خوف صلاح الدين من مواجهة الصليبيين نتيجة لمونتجيسارد[١]، فقد زال هذا العارض بدليل إقدامه على مُحاصرة الحصن والإغارة عليه بعد واقعة همفري أكثر من مرة، ناهيك عن الأثر النفسي الذي تسببت فيه هزيمة الصليبيين غير المتوقعة حيث فقدوا بعض وجوههم وعلى رأسهم همفري أوف تورون بعدما أثخن بجراحه في دفاعه عن الملك، وقد أدرك المسلمون مكانته الكبيرة بين الصليبيين[٢]، وقُتل في أرض المعركة كل من إبراهام الناصري وجوديشو دي تروت[٣]، وتواترت الأنباء على المعسكر الإسلامي بعدئذ بكثرة وفيات الصليبيين تأثرًا بجراحهم[٤]، مما رفع من عزائم المسلمين وجعلهم يُقدمون على مُهاجمة الحصن "...الذي بنوه وشاهدناه، وكشفنا عوراته وعايناه، وأزعجنا الكفر بأقدامنا وذعرناه، وعدنا على عزم العود إليه والنزول عليه..."[٥].

وكان من نتيجة المعركة أيضًا أن صلاح الدين شن سلسلة من الغارات التخريبية على القرى والضياع الصليبية المُحيطة بالحصن، وعجزت حاميته عن منع التوغل المتكرر للمسلمين إلى تلك المنطقة وغيرها[٦]، وهدفت تلك الغارات إلى الحرق والتدمير والحصول على الغلال لحرمان الصليبيين منها، ولتوفير الغذاء للجيش الإسلامي نتيجة لحالة الجدب

---

(1) Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 86–9; Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 267.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٠–١٥١؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٣. وأيضًا:
William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 438–9.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥١. وأيضًا:
William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 438–9.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٠–١٥٢.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٢.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٧.

في دمشق وما حولها[١]. وأكد باربر أن تلك الغارات كان لها نتائج خطيرة للغاية على مستقبل الحصن؛ لأنها جعلت المنطقة المُحيطة به بلا جدوى اقتصادية[٢].

وعلى الرغم من ربط وليم الصوري بين واقعة همفري وقيام صلاح الدين بمحاصرة الحصن على الفور استثمارًا للروح المعنوية لدى المسلمين بعد انتصارهم على الصليبيين[٣]، وتأكيد وليم الصوري بأن الملك كان يعلم أن صلاح الدين سوف يهاجم الحصن تبعًا لذلك[٤] فإن الأمر لم يكن بالصورة التي عرضها وليم، وبخاصة أن صلاح الدين انتظر ما يقرب من سبعة وثلاثين يومًا تقريبًا بعد انتصاره على الصليبيين في واقعة همفري قبل أن يهاجم الحصن على الرغم من اقتراب الحصن من موقع المعركة. ولعل مما يفسر هذا التأخير إشارة الأصفهاني إلى انتظار صلاح الدين وصول التعزيزات من مصر ليبدأ في مهاجمة الحصن[٥]، وبخاصة أنه حينما هاجمه هذه المرة قبل وصول الإمدادات والتعزيزات، فإنه رفع الحصار بعد خمسة أيام انتظارًا للتعزيزات مرة أخرى.

ولا ريب في أن الجدب الذي انتشر في هذه السنة كان له دور في تأخر صلاح الدين في محاصرة الحصن، وبخاصة أن موسم حصاد القمح الشامي يبدأ في شهر مايو ويستمر إلى يونيه، وقد حاصر صلاح الدين الحصن في ٢٣ من مايو ١١٧٩م/٨ من ذي الحجة ٥٧٤هـ أي في وقت الحصاد، وهاجم طبرية قبل هجومه على الحصن[٦] مما يرجح حصوله على المؤن والإمدادات من هناك، ناهيك عن تأخر رحيل مبعوث الخلافة فاضل الذي ظل في ضيافة

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٣.

(2) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 11–12.

(3) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 440–2.

(4) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 440.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٠.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٩–١٦٠.

صلاح الدين حتى ٢٣ من أبريل/منتصف ذي القعدة ثم رحل توران شاه إلى مصر بعده بقليل[١].

وثمة أسباب أخرى اضطرت صلاح الدين إلى تأجيل محاصرة الحصن، حيث أشار بعض المؤرخين المُعاصرين إلى اتفاق الصليبيين على مهاجمة المسلمين في أكثر من موضع بهدف تشتيت جهودهم "...اقتضى رأي الفرنج أن يُرعبوا المسلمين في كل ناحية خوفًا من اجتماعهم على جهة واحدة..." ولذا هاجم أمير أنطاكية مدينة شيزر بينما هاجم أمير طرابلس جماعة من التركمان بالقرب من حمص[٢]. وذهب باربر إلى أن الداوية كانوا يقفون خلف تلك التحركات في سعيهم لفرض استراتيجية جديدة للدفاع عن المملكة ببناء هذا الحصن وحصون أخرى على الخط الحدودي الشرقي لتكون بديلًا للاستراتيجيات العشوائية السابقة لبعض البارونات[٣]، ولذا أقنعوا الملك بضرورة إتمام بناء الحصن في هذا الموقع[٤]، وذلك على الرغم من مخالفته للاتفاق السابق مع المسلمين والذي يقضي بعدم بناء حصون جديدة في تلك المنطقة[٥]، وذاك ما دفعهم إلى مهاجمة المسلمين في أكثر من جبهة بهدف

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٤، ١٥٧-١٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٣-٩٤. وأيضًا: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٥-١٥٦.

(٣) رأى باربر أن انطباع سمايل عن عدم وجود سياسة حدودية متماسكة في المملكة ربما كان مُستمدًا من ملاحظته عن السياسة الحدودية غير المتسقة لبعض أمراء الصليبيين في النصف الأول من القرن الثاني عشر، ورأى أن الفرسان الرهبان كانوا يسعون إلى تغيير تلك السياسة في السنوات السابقة على معركة حطين. انظر:

Barber, *Frontier Warfare*, pp. 13-14. Cf. also: Tibble, S., *Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291*, (Oxford, 1989), pp. 158-61.

(4) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 15-16.

(5) Ernoul, *Chronique d'Ernoul*, p. 52.

صرف انتباههم وتبديد جهودهم بعيدًا عن الحصن، ولذا قام أمراء كل من أنطاكية وطرابلس بمهاجمة شيزر وحماة وحمص(١).

وقد وقعت تلك الحوادث في الفترة التي تلت نجاح صلاح الدين في الاستيلاء على بعلبك في ٢٢ من مارس ١١٧٩م/٥ من شوال ٥٧٤هـ وباتت تحركاته آنذاك مُزعجة للصليبيين سواء في موقع بناء الحصن أم من خلال غاراته على طبرية وصفد وتبنين من خلال معسكره في بانياس(٢)، وقد جعل ابن الأثير حوادث مُهاجمة شيزر وحماة وحمص تالية لحوادث واقعة همفري في أبريل ١١٧٩م/ذي القعدة ٥٧٤هـ(٣). وقد عالج صلاح الدين تلك الأزمة بهدوء وكلف ابن أخيه تقي الدين عمر بحماية شيزر وحماة(٤)، وأمر ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه بالدفاع عن حمص وحمايتها(٥)، ورجح الأصفهاني قيام قلج أرسلان بمهاجمة رعبان آنذاك بتحريض من الصليبيين ضد صلاح الدين لتشتيت جهوده وتبديد موارده وإنهاكه في أكثر من جبهة(٦).

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٥؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٣؛ البنداري: سنا البرق، ص١٥٥؛ أبو شامه: الروضتين، تحقيق: إبراهيم الزيبق، جـ٣، ص٢٧؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ص٦٧. وأيضًا:

Cahen, *La Syrie du Nord á L'époque des Croisades et La Principauté Franque d'Antioche*, Institut Français de Damas, Bibliothèque Orientale, I, (Paris, 1940), p. 418.

(٢) أدرك الأصفهاني دوافع الصليبيين من تلك التحركات على أكثر من جبهة حينما ربط بين قيام كل من أمراء أنطاكية وطرابلس بتلك التحركات العسكرية وبين سعي الصليبيين لتخفيف الضغط الذي مارسه صلاح الدين ضد الصليبيين في طبرية وتبنين وصفد. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٢-٩٣.

(4) Ernoul, *Chronique d'Ernoul*, p. 46.

(٥) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٨-١٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٤؛ محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٢٥.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٤-١٧٥.

ولا شك في أن تعزيز وجود الداوية في صفد بإقليم الجليل كان خطوة أخرى في الاتجاه ذاته مثلما سبق وعززوا وجودهم في غزة[١] وفي جبال أمانوس في طرابلس[٢]. ولذا بات حصن مخاضة يعقوب بمثابة القطعة الأخيرة لفرض رقابتهم على الخط الحدودي الشرقي بأسره[٣]، وجاء تزويدهم لحصن مخاضة يعقوب بحامية كبيرة وأسلحة وأقوات تكفيهم لفترة طويلة لتمكينهم من السيطرة على ممرات الأردن إلى الجليل وعرقلة حركة القوافل والمرور دون تعرض حاميته لأزمة معيشية[٤]. وقد اعتاد الداوية ممارسة ذلك الدور وبخاصة في الجنوب حينما هاجموا القافلة المصرية عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ[٥]. ولذا حينما رفض الصليبيون عرض صلاح الدين بهدم الحصن، فإنه واجههم في واقعة همفري وتعين عليه تأمين حدوده

---

(١) غزة: هي المفتاح المُؤدي إلى مصر وآخر المدن القوية على الحدود المصرية من جهة سيناء، وتقع غرب عسقلان على مسافة عشرين كيلو مترًا تقريبًا، وقد استغلها الصليبيون في مهاجمة مصر، واستردها صلاح الدين عام ١١٩١م، وبالرغم من استيلاء رينشارد عليها فإنها خضعت وفق صلح الرملة للمسلمين بعد تخريبها. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص٢٠٢-٢٠٣. وأيضًا: نبيلة مقامي: فرق الفرسان، ص٨٦-٨٧.

(2) Ellenblum, *Frontier activities, pp.*83-4.

(٣) يرى الباحث من فحص موقع الحصون التي شيدها الصليبيون في الماضي ويسعون إلى تشييدها – أو إعادة تشييدها – في الوقت الراهن أنها تقع على خط حدودي واحد على الجبهة الشرقية للمملكة وفوق الخط الحدودي الوهمي بين المسلمين في دمشق شرقًا ومملكة بيت المقدس غربًا، متضمنًا هونين في الشمال في أعلى الأردن في الجهة المُقابلة لبانياس، ومخاضة يعقوب إلى جنوب غرب بانياس، ثم كوكب الهوا أو بلفوار على الضفة الغربية للأردن وشمال شرق بيسان، ثم كل من الكرك والشوبك في جنوب شرق بيت المقدس. إن سعي الصليبيين لتفعيل قوة هذا الحد كان كفيلًا بتقليل الغارات الإسلامية على مدن المملكة في طبرية والجليل وبيسان وحابس جلدك والكرك والشوبك وبعض مواني‌ء الساحل ومدنه.

(٤) حاول باربر توضيح قوة الحامية التي أقامت بالحصن بمقارنتها بقوة الحامية المُقيمة في صفد عام ١٢٤٠م، حيث تُشير الأرقام إلى وجود ٥٠ فارسًا، و٣٠ من المشاة، و٥٠ تركبولي، و٣٠٠ من رماة السهام crossbowmen، إضافة إلى ٨٢٠ عاملًا متنوعًا و٤٤٠ من الأسرى. انظر:

Barber, *Frontier Warfare*, p. 20. Note. 12. Cf. also: Huygens, ed., 'De constructione castri Saphet', Studi Medievali ser.3, 6 (1965), p. 384.

(5) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 13-14. Cf. also: Tibble, *Monarchy and Lordships*, pp. 158-61.

في حماة وشيزر وحمص ورعبان، وبعث إلى مصر في استدعاء ١٥٠٠ جندي من خيرة المُقاتلين لتعزيز موقفه(١).

ولم ينس صلاح الدين **الإغارة على الحصن** في تلك الأزمات المتلاحقة، وقد أشار الأصفهاني أكثر من مرة إلى إغارة صلاح الدين على الحصن، ولكن دون أن يُوضح إن كانت غارة واحدة أم أكثر، بيد إن اختلاف توقيت كل منها وارتباط كل غارة بحدث معين يُؤكد أنها كانت أكثر من إغارة، ومنها ما كان جديًّا، ومنها ما لم يزد هدفه عن جمع المعلومات والوقوف على أخبار الحصن وتخريب المنطقة المُحيطة به(٢)، ووقعت جميعها في الفترة التي سبقت مرج عيون. وقد وقف الباحث لدى الأصفهاني على نص يُرجح ذلك جاء فيه: "...وقد تمت المُواعدة على مُعاودته والمُراددة لمراودته، وانعقدت العزائم على الرجوع إليه والنزول بالجمع عليه، لهد بنيانه وهدم قاعدته..."(٣)، وفي هذا دلالة على أن غارات صلاح الدين كثرت ضد الحصن، وأنها كانت تهدف إلى إضعاف الصليبيين وإنهاكهم(٤).

وأول ما وقف عليه الباحث تلك الغارة التي شنها المسلمون على الحصن عقب انتهاء مشكلة بعلبك، ويمكن تمييزها عن بقية الغارات التالية بمرافقة فاضل مبعوث الخليفة لصلاح الدين في تلك الغارة، وكانت تلك المرة الأولى التي أغار فيها صلاح الدين على الحصن، وكان الهدف منها الوقوف على الحصن وجمع المعلومات عنه(٥)، ولكن لا نعلم إن كانت تلك الغارة قد حدثت قبل ٢ من أبريل ١١٧٩م/٢٣ من شوال ٥٧٤هـ، حينما كان الملك في

---

(1) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 12–3.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٨، ١٥٢، ١٧٥؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٥؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٢.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٠.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٨، ١٧٥.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٨؛ الابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٥.

الحصن آنذاك أم بعدئذ[١]، ولكن ما يمكن ترجيحه باطمئنان أن هذه الغارة وقعت قبل واقعة همفري في الأول من ذي القعدة/٩ من أبريل، وأنها وقعت بعد فشل التفاوض على هدم الحصن وإلا ما هاجم صلاح الدين الحصن. واقتصرت نتائج تلك الغارة على حصول صلاح الدين على معلومات مهمة عن الحصن، إضافة إلى التسبب في بعض الخسائر المادية والبشرية من جراء مهاجمته للمنطقة المُحيطة بالحصن[٢].

وأما الغارة التالية التي وقف عليها الباحث، فقد حدثت عقب رحيل توران شاه إلى مصر في الثلث الأول من مايو ١١٧٩م/الثلث الأخير من ذي القعدة ٥٧٤هـ، وقد حرص صلاح الدين بعد تأمين رحلة أخيه على مهاجمة الحصن في أثناء عودته ربما للتأكد من الأخبار التي جمعها عن الحصن في الغارة السابقة[٣]. ولا نملك عن هذه الغارة أية تفاصيل أو حجم الخسائر التي تسبب بها المسلمون للحصن وحاميته، ولكنها بلا شك مهدت للحصار الذي فرضه المسلمون على الحصن بعدئذ بقليل. أما الغارة الثالثة التي وقف عليها الباحث، فيمكن تسميتها بالحصار الأول والحقيقي الذي شنه المسلمون على الحصن في ١٦ من مايو/٨ من ذي الحجة[٤]. وقد جاءت هذه المحاولات استثمارًا للانتصار الذي حققه المسلمون على الصليبيين في ٩ من أبريل ١١٧٩م/الأول من ذي القعدة ٥٧٤هـ بحيث عدَّها بعض المؤرخين دلالة على وهن وضعف واستكانة لدى الصليبيين[٥]، بيد إن هذا ينطبق على الغارات الثلاثة السابقة لقيام المسلمين باثنين منها بعد واقعة همفري.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٥؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٢.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٤–١٥٥، ١٥٧–١٥٨.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٧–١٦١. وأيضًا:
William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 439–40.

(٥) الأصفهاني: البرق، جـ٣، ص١٥٢؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٣.

وقد علق كل من الأصفهاني وابن الأثير على تلك الغارات بأن السلطان كان يهاجم الحصن ويلحق به الضرر ثم ينسحب وفي نيته العودة إليه لمحاصرته وهدمه بعد وصول التعزيزات[١]. وتُشير بعض رسائل الفاضل، ولكن بغموض شديد، إلى وقائع أخرى ربما جرت في تلك الفترة بين المسلمين والصليبيين حول موقع الحصن بقوله: "...ومنها: نوبة وادي الحريق..."[٢]، وقد جعلها الفاضل قبيل مرج عيون مباشرة ولكن لم نجد لها صدى لدى المؤرخين المعاصرين. بيد إن أخطر تلك الغارات ما وقع في ١٦ من مايو/٨ من ذي الحجة[٣] والتي استمرت لخمسة أيام تالية "...قصدنا البرج ونازلناه ومازلنا نزاول من عنده حتى أزلناه واحتموا بباطنه فما أخرج أحد رأسه، وسنعود إليه بعون الله ونقلع أساسه"[٤].

ولكن لا توجد إشارة واضحة إلى حجم الضرر الذي سببه صلاح الدين للحصن[٥]. والغريب في هذه الغارة أن المسلمين قاموا بها في أيام عيد الأضحي من عام ٥٧٤هـ (مايو ١١٧٩م)، بحيث دارت المعارك قبل العيد بيومين واستمرت لليوم الثالث من أيام العيد[٦]، ويمكن

---

(١) الأصفهاني: البرق، جـ٣، ص١٥٧؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٥. وأيضًا: أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٤.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٠-١٦١. وأيضًا:
William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 439-40.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٧.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٠-١٦١. وأيضًا:
William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 439-40.

(٦) جرت حوادث هذا الحصار في نهاية الثلث الأول من شهر ذي الحجة، بداية بيوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة واستمر الحصار خمسة أيام أي إلى اليوم الثاني عشر من ذي الحجة ٥٧٤هـ. وقد اختلف وليم الصوري مع المؤرخين المسلمين في تحديد تاريخ هذه المعركة بأنها وقعت في ١٩ من ذي الحجة ٥٧٤هـ/٢٧ من مايو ١١٧٩م، وإن كان التاريخ الذي قدمه الأصفهاني أقرب للقبول وبخاصة أنه ربط حصار الحصن بأيام عيد الأضحي، وربط بعض التحركات العسكرية والمناوشات بأيام مناسك الحج مثل يوم التروية ويوم عرفة وأيام التشريق الثلاثة الأولى، وهذه مناسبات يصعب نسيانها، بينما جاء التاريخ الذي قدمه وليم الصوري – والغائب عن الشرق آنذاك – متأخرًا عشرة أيام عن التاريخ الذي قدمه الأصفهاني – والذي شارك في ذلك الحصار.

تفسير تعمد حدوث ذلك لتضليل الصليبيين الذين لن يتوقعوا مهاجمة المسلمين لهم في أيام عيدهم. وأما عن انسحاب المسلمين فقد برره وليم الصوري بمقتل أمير جليل الشأن بنشابة أحد الأمراء الصليبيين مما جعل المسلمين يرفعون الحصار على الفور[١]، ولكنه تبرير بعيد عن الواقع؛ لأن المسلمين انسحبوا من أمام الحصن بسبب تفضيل صلاح الدين انتظار وصول التعزيزات من مصر[٢]، وكانت تلك المهام اللوجستية من أهم ما اضطلع به الفاضل طوال فترة صراع صلاح الدين مع الصليبيين ولكنه سبق واستأذن السلطان في آداء فريضة الحج[٣].

ويكمن قبول تفسير انسحاب صلاح الدين لقلقه من من مواجهة الجيش الصليبي بناء على إشارة المؤرخين المُسلمين تاليًا إلى سعي صلاح الدين للحصول على التعزيزات والإمدادات من خلال مهاجمة الصليبيين والغارة على ممتلكاتهم في تبنين وصور وصيدا وطبرية وصفد لجمع الحبوب في موسم حصادها[٤]، وفي تصريحهم باضطرار المسلمين إلى الانسحاب انتظارًا للتعزيزات[٥]، بما يعني أن صلاح الدين اختبر تقديراته السابقة عن حالة الحصن ومكامن قوته وضعفه، وأدرك أن تقديره لوضع الحصن لم يكن في محله وأن قواته

وفسر وليم الصوري انسحاب صلاح الدين بإصابة أمير جليل الشأن فاضطر صلاح الدين إلى إنهاء الحصار وهو أمر لم يأخذ به غالبية المؤرخين الأوربيين المُحدثين وعللوا انسحاب صلاح الدين برغبته في انتظار التعزيزات التي أرسل في طلبها من مصر. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٠-١٦١. وأيضًا: William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 439-40. Cf. also: Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

([1]) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 440.

([٢]) الأصفهاني: البرق، جـ٣، ص١٥٧؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٥. وأيضًا: أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٣.

([٣]) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٣.

([٤]) الأصفهاني: البرق، جـ٣، ص١٥٧-١٥٨؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٥. وأيضًا: أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٣.

([٥]) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٧؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٥.

وموارده الحالية لن تُسعفه في الاستيلاء عليه، ولذا رفع حصاره وانسحب على أمل العودة قريبًا ومعه ما يكفيه من التعزيزات.

وتوجه صلاح الدين إلى بانياس بعدئذ ونصب معسكره في تل القاضي في مروج الشعراء إلى الشمال الشرقي من بانياس في منتصف عام ١١٧٩م/مستهل عام ٥٧٥هـ استعدادًا لمواجهة الصليبيين **في مرج عيون**. وشرع في جمع الحبوب والأعلاف بالإغارة على الصليبيين[١]، وحينما قلت المراعي والعلف في تلك المنطقة، فقد اضطر إلى نقل مُعسكره إلى بانياس ذاتها، واستمر بها لما يقرب من عشرين يومًا تقريبًا[٢]، واستأنف الغارات على القرى والضياع الصليبية للوفاء باحتياجات الجيش وإلحاق أكبر ضرر بالصليبيين في صيدا وبيروت وطبرية مُستغلًا انضمام العربان والبدو إليه، وبخاصة أن شهر يونيه كان موعد حصاد القمح في سوريا وفلسطين[٣]، وقد شكى وليم الصوري من الغارات التي شنتها تلك العناصر على المنطقة المُحيطة بالحصن[٤].

واتفق مجلس مشورة صلاح الدين على البقاء في المعسكر تأهبًا للقاء المرتقب "...وإن شرع العدو في الاحتشاد لصرفنا عن هذا المراد، لا يكتم سرهم، ولا يخفى أمرهم، فإن جواسيسنا بالبلاد وعيوننا للأرصاد، إن نهضوا، نهضنا في مقابلتهم وحرصنا على مقاتلتهم"[٥]. وحينما حصل الجيش على ما يكفيه من المؤن والإمدادات فقد نزل صلاح الدين الدين على نصح رجاله في ضرورة الإفادة من العامل النفسي الذي بات في صالحهم وأمر

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٤.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦١.

(4) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 437–8.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٥٩.

فرق الجيش بالتحرك صوب البقاع[١] يوم السبت الموافق ٧ من يونيه ١١٧٩م/مستهل محرم ٥٧٥هـ. ووصلت العيون والجواسيس إلى صلاح الدين بأخبار تحرك الصليبيين في طبرية، فجهز فرقة من الخيالة الخفيفة وعلى رأسها فرخشاه لاستطلاع أخبارهم وحماية المسلمين الذين يجمعون أعلاف الدواب من القرى والضياع الصليبية[٢].

وهكذا يصعب فصل حوادث معركة مرج عيون التي وقعت في الثامن من يونيه ١١٧٩م/الثاني من المحرم ٥٧٥هـ[٣] عن مجمل الحوادث التي أفضت إلى استيلاء صلاح الدين على الحصن؛ فلم يهاجم الصليبيون كل من شيزر وحماة قبلًا سوى لتفريق المسلمين وردعهم عن مُعاودة حصار حصن مخاضة يعقوب ومنعهم من نهب غلال تبنين وصفد وطبرية[٤]، وفي المقابل لم يدخر صلاح الدين جهدًا في حشد العوام والبدو والتركمان، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة لتجهيزهم وإعدادهم[٥]، وحرضَّ هؤلاء وغيرهم على شن العديد من الغارات الغارات على قرى الصليبيين وضياعهم لجمع الغلال والحبوب[٦].

وأكد ابن الأثير أن المسلمين بيتوا النية لاستغلال هزيمة الصليبيين السابقة في مهاجمة الحصن والاستيلاء عليه "...وقوى طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه، وبث العساكر في بلد الفرنج للإغارة..."[٧]. وأما ما يرجح أن تلك الحشود التي جمعها صلاح الدين كانت تهدف إلى حصار حصن مخاضة يعقوب أن صلاح الدين حرص في أثناء الحشد والتعبئة على توفير الآلات ومن أهمها المناجيق، وهذه لا قيمة لها في المُواجهات المُباشرة إذا ما كانت تلك

---

(١) البقاع: وصفت باتساع أرضها وتقع بين بعلبك وحمص ودمشق، وبها كثيرًا من القرى ويشرب أهلها من عين يُقال لها عين الجر وتخرج من جبل قريب منها. انظر: ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٤٧٠.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٢.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٦.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٥-١٧٦.

(6) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 440-1.

(٧) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٣.

نية صلاح الدين، وأما وقد بيَّت النية على مُحاصرة الحصن والاستيلاء عليه فهنا يكون لتلك الآلات أهميتها[١]. وبالتالي، فإن معركة مرج عيون التي اضطر صلاح الدين إلى خوضها ليست سوى عقبة تحتم عليه تخطيها لمحاصرة الحصن.

وقَدَّر المُؤرخون المسلمون مثل الأصفهاني أعداد الجيش الصليبي بألف رامح، وعشرة آلاف مقاتل ما بين فارس تركبولي[٢] وراجل سرجندي[٣]، ووصفهم في موضع آخر بالآلاف المُؤلفة[٤]، بيد إنها تقديرات تحمل كثيرًا من المبالغة وبخاصة أننا لم نقف على أثر مُشاركة بعض بعض أمراء الصليبيين في تلك المعركة وبخاصة بوهموند الثالث وريناللد سيد صيدا وغيرهما[٥]. بينما لم ترد إشارة إلى مقدار جيش صلاح الدين سوى أن كثيرًا من التركمان والعرب والبدو والمُتطوعة من غير الجنود النظاميين قد انضموا للجيش النظامي في المعسكر في تل القاضي والبقاع[٦]، وأن جانبًا من الجيش غاب عن المعركة بقيادة تقي الدين عمر لاضطراره إلى التوجه إلى رَعْبَان[٧] لمنع قلج أرسلان من الاستيلاء عليها[١]. وأكد ابن أبي طي وصول أنباء انتصار تقي الدين إلى المسلمين يوم انتصارهم على الصليبيين في مرج عيون[٢].

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٥.

(٢) التركبولية: هم عناصر من الفرق العسكرية المحلية التي انضمت إلى الجيوش الصليبية، وكانوا مثلهم مثل الخيالة البيزنطية في تسليحهم وتدريبهم الخفيف، وبعضهم من المسيحيين المحليين وبعضهم من المسلمين الذين ارتدوا عن الإسلام. انظر:

Runciman, S., *A History of the Crusades*, vol. 2, (Cambridge, 1952), pp. 292–293.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٧.

السرجندية هم الرجالة كاملي التسليح ممن ينحدرون من أصل صليبي ويقيمون في كنف السادة الاقطاعيين الذين يجهزونهم ويقدمونهم للملك وفق الاتفاق الذي عقد بينهم وبينه نظير الحصول على الإقطاع. وقد عرض يوحنا أبلين لحقوقهم وواجباتهم. انظر:

John of Ibelin, *Le Livre des Assises*, pp.595, 615.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٠.

(5) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 443.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٥–١٧٦.

(٧) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢١.

وقد بدأت المعركة بقيام الصليبيين بقطع الطريق على فرقة الاستطلاع التي يقودها فرخشاه بعد توغلها بعيدًا في العمق الصليبي[٣]، مما دفع صلاح الدين إلى التحرك لمساعدتهم عقب استغاثتهم به[٤]، وبخاصة أن أكثر ما كان يخشاه صلاح الدين أن ينجح الصليبيون في الفصل بينه وبين جنوده بالجهة الأخرى من الأردن. وبالرغم من حرص فرخشاه على تجنب الاشتباك مع الصليبيين ريثما تصله النجدة فإن الصليبيين هاجموا أثقاله ومؤونته واستولوا عليها ضاربين عرض الحائط بأوامر قادتهم بالعودة عن النهب[٥]، وسرعان ما نشبت المعركة بين كافة فرق الجيشين وأمر صلاح الدين رماته برمي الصليبيين وبعد قليل عادت فرقة الاستطلاع بدورها إلى المعركة واشتبكت مع الصليبيين وحاصرتهم. ولم ينكر الأصفهاني شدة المقاومة التي أبداها قادة الجيش الصليبي، وأكد أنه لو قُدر النجاح لبعض هجمات الصليبيين التي اتسمت بالهدوء والتناسق لهزموا المسلمين، وأكد الأصفهاني أن المعركة كانت قوية وأن وتيرتها لم تكن ثابتة لطرف وأنه لولا فضل الله وتأييده لانهزم المسلمون[٦].

ويمكن تفسير عوامل هزيمة الصليبيين بأنهم لم يُبادروا بمباغتة المسلمين قبل الاستعداد لخوض المعركة، ولو فعلوا ذلك لصار لهم عامل المفاجأة ولتمكنوا من قطع الصلة بين فرقة

---

(١) ادعى قلج أرسلان أن نورالدين محمود أخذ منه رعبان على غير موافقته، وأن الصالح إسماعيل بن نورالدين محمود قد منحها له، ولكن صلاح الدين رفض هذا الادعاء وكان لابد من إرسال تقي الدين عمر على رأس فرقة من ألف جندي لحماية رعبان من طموح قلج أرسلان، وما أن رأوا القوة التي قادها تقي الدين عمر فإنهم انسحبوا. وقد أشار الأصفهاني إلى احتمال وجود تواصل بين قلج أرسلان والصليبيين وأنه ربما قام بهذا الهجوم بناء على تفاهم واتفاق سابق بينهما. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٣–١٧٥.

(٢) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢١–٢٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٩.

(3) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 441.

وأيضًا: أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص١٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٦.

أشار الأصفهاني إلى أن مهاجمة الصليبيين للعلّاقة من المسلمين كان له دور في تدخل الجيش لحمايتهم ونشبت المعركة تبعًا لذلك. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٧.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٧.

(5) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 441.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٠. وأيضًا: ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٥.

الاستطلاع وبقية الجيش، ولكن غابت عنهم تلك الفكرة[١]، علاوة على وجود المُشاة في جهة والفرسان في جهة أخرى بسبب الإنهاك الذي تعرض له المُشاة[٢]، إضافة إلى انشغال بعضهم بجمع الغنائم قبل انتهاء المعركة، وقد استغل فرخشاه ذلك الوضع وأبلى بلاءً حسنًا بشهادة المُؤرخين المسلمين، وأظهر شجاعة كبيرة في مهاجمة جموع متفرقة من الصليبيين[٣]. وكان لأرض المعركة الصخرية وغير المستوية وأوديتها الضيقة والمجهولة للصليبيين دور في هزيمتهم وفي وقوع عدد كبير منهم في أسر المسلمين؛ لأنهم تشتتوا في أنحاء المنطقة ودارت معارك متفرقة بينهم وبين فرقة الاستطلاع المُسلحة تسليحًا خفيفًا والمُدربة على هذا النوع من حروب الكر والفر[٤].

ولم يكن لدى الصليبيين خطة انسحاب واضحة على ما ظهر من رواية وليم الصوري، حيث انسحبت بعض فرق الجيش من المشاة والفرسان بلا نظام وإلى حيث لا يعلمون الأماكن التي سيتجهون إليها[٥]. ولم يُشارك بعض الصليبيين في تلك المعركة الحاسمة وبخاصة أمير أنطاكية وبعض البارونات وهو أمر مثَّلَ خطرًا كبيرًا نتيجة للانطباع الذي تركوه منذ تحركاتهم الأخيرة والتي ظهر منها أنهم وحدوا جهودهم ضد المسلمين على الجبهة الشرقية[٦]، بل إن تأخر رينالد سيد صيدا عن المعركة يُؤكد أن قرار خوض المعركة لم يتم التخطيط له على الوجه الأمثل، وأن الصليبيين دفعوا ثمنًا باهظًا نتيجة لتسرعهم[٧].

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٥.

(2) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 442–4.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٤، ١٧١–١٧٢؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٥–٩٦.

(4) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 441.

(5) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 442–4.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

(7) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 442–3.

وترتب على اندفاع أودو مقدم الدواية في مطاردة المسلمين أنه عرَّضَ الملك للخطر، ووقوع عدد كبير من كبار فرسان الصليبيين ومقدميهم ما بين قتيل وأسير[١]، حينما اضطر هؤلاء إلى التراجع، فلم يجدوا أنفسهم سوى في وادي صخري ضيق لا مخرج لهم منه ولا منفذ، وفرسانهم ومشاتهم يتساقطون صرعى أمام المسلمين، وأما من قُدَّر لهم النجاة، فإنهم تفرقوا في الغابات والتلال المجاورة[٢]، ولم ينج من المعركة سوى الملك وبعض خواصه الذين حملوه وهربوا به تحت جنح الظلام[٣]. وقد توجه بعض الجنود الفارين من المعركة إلى الشقيف أرنون *Beaufort*[٤]، بينما توجه بعضهم الآخر إلى صيدا حتى قابلهم سيدها رينالد، وحينما علم بهزيمة الصليبيين، فإنه عاد إلى صيدا على الفور[٥]. ويرى وليم أنه لو أكمل إلى الشقيف لنجح في إنقاذ من تخفى من الصليبيين في الكهوف؛ لأن المسلمين أسروهم في الصباح في أثناء تمشيطهم للمنطقة، وحمَّله وليم مسؤولية أسرهم مُؤكدًا أنه كان أولى به التوجه إلى الشقيف وكان سيتلقى المساعدة والحماية هناك[٦]. وقد حمل الزيدي مقدم الداوية أودو أوف سانت أماند مسؤولية تلك الهزيمة الثقيلة؛ لأنه لم لم يبق في موقعه بجوار الملك وتهور بمطاردته للمسلمين فوقع في الأسر وقُتِل أكثر رجاله[٧].

---

(1) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 442–4.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٣–١٦٨.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٥.

(٤) الشَقِيفُ أرنُوُنَ: قلعة حصينة للغاية في كهف من الجبل بالقرب من بانياس ودمشق، وتقع بينها وبين البحر المتوسط. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٣، ص٣٥٩. وأيضًا: مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص٨٠–٨٢.

(5) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 442–4.

(6) William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 442.

تتضح وجهة نظر سمايل حينما ذهب إلى أن الركون إلى الرأي القائل بأن القلاع الحدودية مهمتها الدفاع فحسب أمر غير مقبول، وبعيدًا عن رؤيته المتشعبة فإنه أشار إلى أن من مهام الحصون الحدودية تلك الحالة التي لم يفد منها رينالد سيد صيدا الذي قرر عدم اللجوء لحصن الشقيف التماسًا للمساعدة ولضمان السلامة والأمان لعدد كبير من الفرسان والمقاتلين الصليبيين الناجين من معركة مرج عيون. انظر:
Smail, *Crusader warfare*, pp. 208–9.

(٧) مصعب الزيدي: موقف تنظيمي الاسبتارية والداوية، ص٩١.

وكان للمعركة نتائج وخيمة على الصليبيين، حيث قُتل عدد كبير منهم وأُسر أودو مُقدم الداوية[١] ومُقدم آخر معه، ومقدم الإسبتارية، وهيج صاحب طبرية ابن زوجة كونت طرابلس[٢] إضافة إلى ابن بارزان وهو من كبار الأمراء الصليبيين، وأُسر أيضًا أخو شقيق سيد جبيل وصهره سيد طبرية[٣]، وابن سيد مرقية، وقسطلان يافا[٤]، وسيد جنين[٥]، ناهيك ناهيك عن عدد آخر كبير من الفرسان الرهبان والبارونات[٦]. ويلحظ الباحث مشاركة الداوية بثقلهم في تلك المعركة وقُتِل بعضهم وأُسر بعضهم الآخر وعلى رأسهم مقدمهم الأكبر[٧] بعدما حُوصروا في الوادي الضيق مما يؤكد أنهم ظلوا يحاربون حتى اللحظة الأخيرة؛ لأنهم كانوا يعلمون جيدًا أن هذه المعركة سوف تحسم مصير حصن مخاضة يعقوب، وأن فشل مفاوضات صلاح الدين معهم لم تثنه عن عزمه على تدمير الحصن[٨]، ولذا لا ينبغي التقليل التقليل من أثر معركة مرج عيون في الاستيلاء على الحصن بعدئذ.

ولعل من أهم النتائج الأخرى التي ترتبت على معركة مرج عيون أن المسلمين أدركوا أنه لو كان بإمكان الصليبيين التعاون من الشمال والجنوب في مُضايقة المُسلمين؛ فإنه لا ينبغي للمسلمين أن يكونوا أقل منهم في ذلك، ولذا ربط الأصفهاني بين ما حدث في مرج

---

(1) Hiestand, *Papsturkunden, vol.* 1, pp. 307–8, nos. 120–21.

(2) William of Tyre, *History of Deeds*, vol.2, p. 443.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٥.

(٤) يافا: واحدة من أشهر مدن فلسطين وتقع على البحر المتوسط إلى الجنوب من مصب نهر العوجا، وتتسم المدينة بكثرة الأشجار وبساتين الكروم. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٤٢٩.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٩.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٨.

استعرض الأصفهاني جميع الأسرى ودون أسمائهم ورتبهم، وأكد أنهم بلغوا جميعًا مائتين ونيفًا وسبعين من الفرسان المُقدمين بخلاف من أسره آسره في خيمته ولم يسمح بهديته، ناهيك عن من لم يشار إليهم من الأتباع، ونُقلوا إلى دمشق وبها حُبسوا. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٦. وأيضًا:

Delaville Le Roulx, *Cartulaire général*, vol.1, pp. 500–23; William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 443.

(٧) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٦. وأيضًا:

Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 1, pp. 307–8, nos. 120–21.

(٨) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٩.

عيون وبين قيام الأسطول المصري بمهاجمة المدن والمواني‌ء في يونيه ١١٧٩م/محرم ٥٧٥هـ في الوقت ذاته الذي اشتبك فيه المسلمون مع الصليبيين في مرج عيون، وظفر الأسطول المصري ببطسة كبيرة وعاد وبصحبته ألف أسير[١]. وأكد سمايل ونتيجة لمعركة مرج عيون أن صلاح الدين اعتاد طوال حملاته ضد الصليبيين على اتباع سياسة مفادها إلحاق أكبر ضرر بالصليبيين وبخاصة إتلاف المحاصيل وتدميرها[٢]، خصوصًا في بيروت وصور وصيدا والمنطقة المُحيطة بالحصن، معتمدًا أسلوب الأرض المحروقة، ولعل أفضل استثمار لنتيجة تلك المعركة ارتفاع الحالة المعنوية لدى المسلمين، وتأكدهم بأنه يمكن تجاوز هزيمة مونتجيسارد والتغلب على الصليبيين والتوجه لحصار الحصن[٣].

استيلاء المُسلمين على الحصن وتدميره:

كان صلاح الدين مُصرًا على الاستيلاء على حصن مخاضة يعقوب وبخاصة أن خطورة ذلك الحصن كانت تُشبه الخطورة التي تُمثلها قلعة الكرك[٤] في جنوب شرق مملكة بيت المقدس[٥]. ومثلما كان أرناط –رينو دو شاتيون *Renaud de Chatillon*– حاكم

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦١، ١٦٩–١٧٠. وأيضًا: أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٧.

(2) Smail, *Crusader warfare*, p. 153.

(٣) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٤.

(٤) الكرك: تقع في جنوب الأردن على مسافة عشرة أميال تقريبًا شرق الطرف الجنوبي للبحر الميت، فوق مُنحدر صخري تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك الذي يتشعب إلى وادي الست ووادي الفرنجة أسفل المدينة الحصينة. وقد أُجريت عدة تحصينات إلى القلعة بهدف تعزيز مواقع الصليبيين في شرقي الأردن، ولذا صارت القلعة بمثابة مخفر صليبي مُتقدم في طريق المرور الرئيس من الشمال إلى الجنوب. انظر: مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص٥٥–٥٦.

(5) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 15–16.

الكرك قادرًا على تهديد البحر الأحمر ومدخل مصر الشمالي الشرقي وسيناء[١] فقد كان حصن مخاضة يعقوب تحت قيادة حامية قوية من الداوية قادرًا على تهديد دمشق وطرق مواصلاتها مع مصر، بخلاف خطورته المستقبلية على الجيوش الإسلامية والقوافل التجارية

أكد المؤرخون خطورة كل من الكرك والشوبك على المسلمين نتيجة للسياسات العدائية لأرناط أمير الكرك والشوبك حينما هاجم البحر الأحمر للوصول إلى الأماكن المُقدسة في خريف ١١٨٢م، إضافة إلى غاراته على قوافل التجارة في نهاية عام ١١٨٦م مُنتهكًا شروط الهدنة. عن حصن الكرك ودوره المزعج في تلك الفترة انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص١١٣؛ ابن شداد: النوادر، ص٤٣؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص١٥٣، ١٥٧، ١٦٧؛ البنداري: سنا البرق، ص١٩٥، ٣١٢، ٢٨٩؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ص١٥٠-١٥١. وأيضًا:

B. Hamilton, 'The Elephant of Christ: Reynald of Châtillon', in *Studies in Church History*, 15 (1978), pp. 97–108.

[١]– عن غدر أرناط ورعونته انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص٤٢-٤٣؛ ابن شداد: النوادر، ص٥١؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص١٠٥، ١١٧-١١٨، ١٤٢-١٤٤، ١٤٨؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٧٦-٢٧٧، ٢٩٥؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ص٦٠. وعن حملة أرناط التي شنها على البحر الأحمر انظر:

Mallett, A., 'A Trip down the Red Sea with Reynald of Châtillon', *Journal of the Royal Asiatic Society*, Series 3, 18 (2008), pp. 141–53; Hamilton, *The Elephant of Christ*, pp. 97–108; Gabrieli, *Arab Historians*, pp. 133–5.

وحركة المرور عبر تلك الممرات[١]. علاوة على اقتراب الحصن من دمشق مما يُهمش من دورها بصفتها القاعدة الاستراتيجية للمُسلمين بعد انتقال مركز الحكم إليها[٢].

وقد أكدت أعمال البناء في هونين ومخاضة يعقوب مدى حساسية الحدود في تلك البؤرة التي سبق وهاجمها المسلمون أكثر من مرة[٣]. ولكن لم يُسارع صلاح الدين بتطوير عملياته الحربية ضد الحصن، وإنما تأخر ما يقرب من شهرين ونصف تقريبًا بعد انتصاره في معركة مرج عيون ليتخذ هذا القرار، وذلك على الرغم من أن تطوير الهجوم ضد الحصن فور انتصاره على الصليبيين سوف يُوفر له عامل مفاجأة الحامية بخاصة والصليبيين بعامة وهم على تلك الحالة المُزرية من الإنهاك البدني والنفسي. ولكن يجب أن يُوضع في الاعتبار وصول بعض التعزيزات الأوربية التي قادها هنري أوف تروي إلى الشرق الصليبي على ما أشار وليم الصوري، وكان هؤلاء من ضمن حشود المملكة التي وصلت إلى طبرية لإنقاذ الحصن من الحصار الإسلامي[٤]. ولعل هذا ما جعل صلاح الدين يتريث في تطوير هجومه ضد الحصن انتظارًا للحظة المناسبة.

([1]) Barber, *Frontier Warfare*, p. 17–18.

يمكن الوقوف على النتائج بعيدة المدى من سهولة وصول المسلمين إلى الجليل في ١٠ من جمادى الآخرة ٥٧٩هـ/٢٩ من سبتمبر ١١٨٣م، واضطر أهالي بيسان إلى هجرها خوفًا من المسلمين، وواصل المسلمون تقدمهم حتى وصلوا بعد عبور المخاضة إلى جنين وزرعين وكفربيلا وبيسان وهي أماكن كان من الصعب الوصول إليها قبلًا. انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص١١٠–١١١، ١٢٤–١٢٨، ١٢٧–١٢٨، ١٤٢–١٤٦. وأيضًا:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 468–70, 480–5, 489–91, 494–8.

([2]) Smail, *Crusading Warfare*, p. 207.

([3]) Smail, *Crusading Warfare*, pp. 208–9; Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 262

([4]) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 444.

وقد وصلت الحشود التي قادها صلاح الدين والمُشكلة من جموع كثيرة من الخيالة والرجالة والمُتطوعين إلى موقع الحصن يوم السبت[١]، وخيم هؤلاء حول الحصن[٢]، بحيث لم يُعسكر المُسلمون بالناحية الشرقية وحدها كما أشار إيلينبلوم[٣]، وإنما نصبوا خيامهم حول الحصن حتى ازدحمت بهم المروج المُحيطة به[٤]. وكان في إصرار صلاح الدين على اصطحاب آلات الحصار قبيل خوض معركة مرج عيون دلالة على أنه كان يستهدف الحصن منذ البداية؛ لأن وجود تلك الآلات وبخاصة المناجيق لا معنى له في معركة مفتوحة[٥]، بيد إن الحوادث التالية دفعت صلاح الدين إلى العدول عن نصب المناجيق حول الحصن.

حقًا كان صلاح الدين مُصرًا على حصار الحصن بالمناجيق وبخاصة أنها كانت من أكثر آلات الحصار فاعلية في حصار الحصون آنذاك، وأكد ذلك بالتحرك في اليوم التالي من نزوله على الحصن إلى ضياع صفد لجمع أشجار الكروم والأعشاب الجافة والأخشاب اللازمة لنصب المناجيق والستائر[٦]، ولكنه وبعد نقاش طويل بينه وبين رجاله نزل على نصح جاولي الأسدي الذي أشار عليه بتأجيل نصب المناجيق مُؤقتًا، وأن يسمح لبعض رجاله بمُهاجمة الحصن أولًا، فإن نجحوا في الاستيلاء على الباشورة ووصلوا إلى الأسوار، فقد حققوا شوطًا كبيرًا في سبيل الاستيلاء على الحصن في وقت أقل وخسائر أقل، أما إذا ما فشلوا في اقتحام الباشورة، فإن خطة نصب المناجيق ما زالت قائمة ويمكن تنفيذها بعدئذ[٧].

---

(١) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٥.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٧.

(3) Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 90–1.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٦–١٧٧.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٧.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٧، ١٨٨. وأيضًا:
Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 90–1.

(٧) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٧.

وقد استغل إيلينبلوم التغير الذي طرأ على خطة صلاح الدين ليؤكد أن الأخير اضطر إلى ارتجال هذه الاستراتيجية لعلمه بأن الصليبيين لن يُمهلوه الوقت الكافي لضرب الحصن بالآلات، علاوة على اتهامه صلاح الدين بأنه ما زال خائفًا من مواجهة الصليبيين منذ هزيمته في مونتجيسارد[١]، وفي هذا إجحاف بكافة جهود صلاح الدين في مُحاربة الصليبيين وهزيمته لهم في أكثر من معركة آخرها مرج عيون. وعلاوة على ذلك فقد تجاهل إيلينبلوم الأثر الذي تركته المعركة الضارية التي خاضها المُسلمون ضد الصليبيين حول الباشورة، حينما تأثر المُقاتلون بالشاب الشجاع الذي ألهم الجيش بإقدامه على تسلق سور الباشورة بشجاعة أذهلت الجميع مما حثَّ بعض المُقاتلين على مجاراته وحاربوا خلفه ببسالة حتى تمكنوا من الاستيلاء على الباشورة في الليلة الأولى من حصار الحصن[٢].

ولا شك في أن نصب المناجيق كان كفيلًا بتحقيق النتيجة التي رغب فيها صلاح الدين بالوصول إلى الأسوار ونقبها مع استمرار المناجيق في ضرب الأسوار وخلخلتها وإصابة أكبر عدد من الصليبيين ومنعهم من مضايقة أعمال النقب، ولكنه حقق ذلك بالاستيلاء على الباشوورة دون نصب المناجيق، ووفر وقتًا كان بأمس الحاجة إليه. ويُعزَى سقوط الباشورة في أيدي المسلمين إلى عدم تحصينها بشكل صحيح، وقد أكد باربر أن تحصينها لم يزد عن عدة خنادق وبعض المتاريس الخشبية[٣]، علاوة على شجاعة المسلمين المسلمين وإقدامهم مما اضطر حامية الحصن وعمال البناء إلى مغادرتها وانسحبوا إلى الحصن للحماية وانتظارًا لوصول التعزيزات الصليبية التي كانت تتجمع في طبرية[٤].

وقضى الصليبيون ليلتهم في خوف شديد وأشعلوا النيران خلف أبواب الحصن خوفًا من اقتحام المسلمين له[٥]، ولم يتوقفوا عن مهاجمة المسلمين مما دفع بالمسلمين إلى حراسة

---

(1) Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 90–91.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٢.

(3) Barber, *Frontier Warfare*, p. 15.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٢.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٨. وأيضًا: أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٥.

الباشورة طوال الليل[١]. وفضلًا عن ذلك فلم يُضيع المسلمون الوقت وشرعوا في نقب أساسات الجدران[٢]. وقد وُزعت عمليات نقب الجدران على قادة الجيش بحيث تكفل صلاح الدين بالجهة الشمالية من الحصن، وتولى ناصر الدين محمد بن شيركوه موضعًا قريبًا من صلاح الدين؛ ولأن الأصفهاني لم يُحدد له جهة منفصلة فالراجح أنه نال موضعًا من الجهة الشمالية من الحصن إلى جوار صلاح الدين، بينما تكفل عزالدين فرخشاه بنقب الجهة القبلية (الجنوبية) من الحصن، وتولى تقي الدين بدوره جهة أخرى ولكن لم تُحددها المصادر[٣]. وقياسًا على ذلك وُزعت أعمال نقب بقية الجدران على كبار الأمراء، وكان مع كل أمير مجموعات مُختلفة من الصُنَّاع والنَّقَابين والحجَّارين والنَّحاتين وغيرهم[٤].

ولكن لم يُحدد الأصفهاني أو غيره من مُعاصريه سوى الناحيتين الشمالية والجنوبية فحسب مثلما لم يُحدد عدد المجموعات التي قامت بالنقب. وقد أشار الفاضل إلى خمسة مواضع للنقب دون أن يُحدد موضع كل منها من الحصن، ولكنه أشار أيضًا إلى توزيع بعض أعمال النقب على بقية الأمراء على العموم[٥]، مما دفعه إلى وصف أعمال النقب بأنها كانت من كل جهة[٦]. وقد أشار كيندي إلى أن النقب كان يتم في ذلك الوقت باستخدام أنفاق قصيرة من قاعدة الجدار، وقد قام صلاح الدين بحفر نفق تحت جدران الحصن طوله

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٦. وأيضًا: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٨، ١٨٢.

(٢) يهدف تكتيك نقب الجدران إلى عمل نقوب بمقدار يُساوي عرض الجدران تقريبًا، ويتم نقب الجدران في أكثر من جهة وتُحشى أو تلغم بالأحطاب والأعشاب الجافة مع دهنها بالنفط لتسريع إشعالها، ثم تشعل النار فيها لفترة طويلة مما يُؤدي إلى خلخلة الجدران وسقوطها. عن تكتيك نقب جدران الحصون في العصور الوسطى انظر: ابن منكلي (محمد بن محمود الناصري، ت: ٧٨٤هـ/١٣٨٢م): الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٤٠٥-٤٠٧.

(٣) يبدو أن استقرار أمور رعبان جعلت السلطان يرسل في طلب تقي الدين عمر الذي شارك الجيش في نقب الجدران. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٨.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٨.

(٥) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٩.

(٦) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٣٠.

ثلاثون ذراعًا، وعرضه ثلاثة أذرع (١٥م×١.٥ متر تقريبًا)، وهذه كلها ظروف جعلت من النقب فعالًا وبخاصة إذا كانت الظروف مُلائمة والحسابات دقيقة[١]. ولكي ينجح المسلمون في النقب دون مضايقة قوية من الصليبيين بالداخل فقد نصب صلاح الدين الستائر لحماية المسلمين من قذائف النار في أثناء النقب كي لا تسقط عليهم قوارير المواد الحارقة والسهام.

واستخدم الصليبيون تكتيكًا مغايرًا للتصدي للمسلمين من خلال إشعال النيران خلف كل باب من أبواب الحصن، وإلقاء قوارير المواد الحارقة على المهاجمين وجمع الأحطاب والأخشاب الجافة لإشعالها بهدف منع المهاجمين من دخول الحصن إذا ما سقطت الجدران[٢]. وبالرغم من انفراد المُسلمين بمحاصرة الحصن وحاميته لمدة خمسة أيام بدأت بالأحد واستمرت إلى الخميس، فإن العقبات التي صادفتهم كانت كفيلة بإخفاق المُهمة؛ حيث كانت الجدارن حديثة ورطبة وشديدة الصلابة، ولم يتوقف المُدافعون عن الحصن عن رمي المسلمين بوابل مُتصل من السهام بآلة تُسمى الجروخ[٣] إضافة إلى إلقاء قوارير المواد الحارقة، مما أصاب كثيرًا من المُهاجمين بجروح خطيرة[٤]. إضافة إلى مُعضلة أخرى نتجت عن خطأ في الحسابات حينما قام المُسلمون بتلغيم النقب وإشعال النيران به في الليلة ذاتها وبالرغم من ذلك لم تسقط الجدران[٥].

([1]) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 106.

وقد أشار كينيدي إلى أن حادثة استيلاء صلاح الدين على حصن مخاضة يعقوب وتدميره جعل بناة الحصون والقلاع يستجيبون بمهارة وإبداع للتهديدات المتزايدة التي باتت تشكلها أبراج الحصار المتحركة والنقب والتهديدات الأخرى التي ظهرت مع صلاح الدين، بحيث فشلت أمامه غالبية قلاع الصليبيين في الفترة ١١٨٧–١١٨٩م، وكان لابد من تعديل تصميمات قلاع القرن الثاني عشر وتحسينها بشكل كبير لمواجهة التحديات الجديدة. انظر:

Kennedy, *Crusader Castles*, p. 110.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٨، ١٨٢، ١٨٧؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٦–٩٧؛ البنداري: سنا البرق، ص١٦٩؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٥–٢٧.

(٣) البنداري: سنا البرق، ص١٦٩. والجروخ: واحدة من آلات الحرب القديمة وتُستخدم في رمي السهام والنفط. انظر: دوزي: تكملة، جـ٢، ص١٧٤.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٨، ١٨٢، ١٨٧.

(٥) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٥.

ويُعزَى هذا الإخفاق إلى خطأ في تقدير عرض جدران الحصن التي زادت عن تسعة أذرع نجاريَّ[١]، ولذا أمر صلاح الدين بإطفاء النيران صبيحة يوم الإثنين وإعادة النقب مرة أخرى. وللإسراع في تنفيذ ذلك منح دينارًا مُكافأة لكل قربة ماء يحملها الجنود بهدف حثهم على إطفاء النار بصورة أسرع، وحينما حقق ذلك، فإنه أمر النقابين بمعاودة النقب مرة أخرى، ووسعه وزاد فيه ولغمه بالأحطاب والأعشاب الجافة وأشعله مرة أخرى[٢]. وعلاوة على ذلك، فقد صار المسلمون تحت ضغوط شديدة نتيجة للأنباء التي تواترت على المعسكر عن احتشاد الصليبيين بأعداد كبيرة، وهو أمر كان من شأنه أن يُؤثر على كفاءة الحصار والنقب، وكان كفيلًا بتثبيط الجنود لولا الروح العالية التي أشعلها صلاح الدين وقادته في معسكر الحصار[٣].

وترتب على براعة صلاح الدين في استغلال الوقت المُتاح وفي رفعه لمعنويات جنوده وهمته في أعمال النقب أنه نجح في إسقاط الجدران التي أكلتها النيران من أسفلها وخلخلتها ظهيرة يوم الخميس الموافق ٢٨ من أغسطس ١١٧٩م/٢٤ من ربيع الأول ٥٧٥هـ[٤]، وتسابق المُسلمون إلى دخول الحصن[٥]. واشتعلت النيران في بعض أكوام الحطب التي وضعها الصليبيون في فناء الحصن قريبًا من موضع النقب لمنع المسلمين من دخول الحصن، ولكن الرياح نقلت النيران إلى بعض الأبنية القريبة. ورفض صلاح الدين منح

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٦–٩٧.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٩–١٨٣؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٥. وأيضًا:
William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 444–5.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٧، ١٧٩.

(٤) حدد إيلينبلوم تاريخ سقوط الحصن بيوم ٢٩ وليس ٢٨ أغسطس، وذلك على الرغم من إشادته برواية الفاضل بصفته شاهد عيان لتلك الحوادث، وقد أشار الفاضل إلى سقوط الحصن كما أشرنا يوم ٢٨ أغسطس، والمريب في الأمر أن إيلينبلوم اتهم المؤرخين المسلمين بعدم الدقة في عرض التتابع الزمني لحوادث الحصار وهو اتهام لا أصل له بسبب الدقة التي عرض بها المؤرخون المسلمون حوادث الحصن بوجه خاص. انظر:
Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 271–3.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

الأمان لرجال الحامية الذين اعتصموا بأحد جوانب الحصن[١]. ولم تجد نفعًا الحشود التي جمعها الملك بلدوين الرابع في طبرية، وبخاصة أنه ووفقًا لوليم الصوري، فإنه أَجَّلَ الزحف على الحصن يومًا واحدًا، وهو اليوم الذي نجح فيه المسلمون في الاستيلاء على الحصن[٢]. ويُمكن تقدير مجموع أيام الحصار التي سبقت سقوط الحصن بستة أيام، بينما تُقدر أيام الحصار والهدم بأربعة وعشرين يومًا تقريبًا[٣].

وكثرت **الغنائم** التي حصل عليها المُسلمون عقب استيلائهم على الحصن، وكان غالبيتها من الأسلحة والدواب[٤]، بما في ذلك مائة ألف قطعة من أنواع الأسلحة المُتعارف عليها من بينها ألف زردية[٥]، وفي هذا دلالة على أن الصليبيين أنفقوا في بناء الحصن الكثير وزودوا حاميته بما يكفيها من الأسلحة لمدة طويلة، ناهيك عن توفير الطعام والأقوات الكثيرة والمتنوعة والتي لا تقل أهمية عن الأسلحة[٦]. ووقع في أسر المسلمين كثيرًا من الصليبيين؛ إذ قُدرت حامية الحصن بثمانين فارسًا من الداوية، إضافة إلى سبعمائة وخمسين من المُقدمين وأتباعهم، وحوالي مائة معماري وحرفيّ[٧]، مما يعني أن من نجا من القتل منهم منهم لم ينج من الأسر[٨].

---

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

(٢) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٣٠. وأيضًا:
William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 444–5.

(٣) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٦.

(٤) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٣٠.

٥- الزرد: جمع زرديات وهي عبارة عن درع مصنوع من حلقات حديدية مُتداخلة يلبسها المقاتل لتحميه. انظر: دوزي: تكملة المعاجم العربية، جـ٥، ص٣٠١.

(٦) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٥؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٩.

(٧) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٥، ٢٩. حينما استعرض صلاح الدين الأسرى المسلمين فإنه حررهم جميعًا ولم يقتل سوى من علم بارتداده عن الإسلام. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠.

(٨) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٣٠.

وقد اتهم كل من ميتشيل *Mitchell* وناجار *Nagar* وإيلينبلوم صلاح الدين بقتل حامية الحصن وألقى بجثثهم في بئر الحصن، وهو البئر الذي لم يُوفق إيلينبلوم في العثور عليه في أثناء تنقيبه في موقع الحصن(١). ولكن حينما ناقش إيلينبلوم إذا ما كانت الإصابات التي تعرضت لها عينة من الهياكل البشرية من حامية الحصن التي عثر عليها في موقع الحصن ناجمة عن إصابات المعارك بالفعل أم أنها جاءت نتيجة لعمليات إعدام، فقد أقر في النهاية أنه بالرغم من قيام بعض المتطوعين في جيش صلاح الدين بقتل بعض الأسرى بعدما رفض صلاح الدين منحهم الأمان فإن الإصابات التي تعرضت لها الهياكل الخمسة ناتجة عن جروح عادية في الأنسجة الرقيقة وفي العظام نفسها مُحدثة كسرًا أو شرخًا، وأكد عدم وجود حالات قطع حادة بالسيف عند منطقة الرقبة(٢). بينما انتشر بين المسلمين وباء غامض نتج عن تحلل جثث القتلى بسبب ارتفاع درجة الحرارة مع طول مدة الإقامة في الموقع بهدف تدمير الحصن، فمرض بعض الجنود، ومات بعضهم الآخر(٣).

وقد جرت عمليات **تدمير الحصن** مثلما بدأت عمليات النقب، بحيث وُزِعَت أجزاء الحصن على قادة الجيش بالأذرع حتى هدموه تمامًا(٤)، وكان في مقدور صلاح الدين أن يُرمّمّ ما تهدم من أسوار الحصن ومده بحامية قوية بما يسمح له بالسيطرة على حركة المرور في هذا الموقع المُهم، ولكنه لم يفعل ذلك مُقوضًا افتراض إيلينبلوم عن كون المنطقة المُحيطة بالحصن بمثابة حدود إسلامية، مع الأخذ في الاعتبار أنه ربما درس احتمال الإبقاء على الحصن مع رجاله، ولكنه نفذ رؤيته التي تبناها منذ مُفاوضاته مع الصليبيين، واكتفى بهدم الحصن ومنع الداوية من فرض رقابتهم على المنطقة. ولا شك في أنه نجح في ذلك بحيث لم

---

(1) Mitchell, Nagar, Ellenblum, *Weapon injuries*, p. 146.

(2) Mitchell, Nagar, Ellenblum, *Weapon injuries*, pp. 151–3.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٦.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨١، ١٨٩؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٦.

يقف الباحث على أية إشارة إلى مخاضة يعقوب في وثائق المملكة سوى في الفترة التي شهدت بناء الحصن والاستيلاء عليه وهدمه(١).

ويرى الباحث أن المُسلمين كانوا يرون أن سياسة بناء الحصون في هذه المنطقة من الأمور الخطيرة نتيجة لاعتماد الصليبيين على الحصون والقلاع كجزء من استراتيجية وجودهم في الشرق؛ لأن الفضاء المفتوح كان من شأنه إنهاك الصليبيين لقلة أعدادهم ووجودهم في بيئة مُعادية، ولا يتلقون الدعم سوى من خارج المنطقة بأسرها، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للمسلمين بصفتهم أصحاب الأرض وتأتيهم التعزيزات من أماكن قريبة. وقد برهنت بعض الحوادث التالية على أن المسلمين تجنبوا بناء أية حصون في هذه المنطقة على وجه الخصوص حتى بعد استرداد بيت المقدس؛ لعلمهم بأن بقاء أي حصن في تلك المنطقة تحت سلطة الصليبيين يُعتبر مركز قوة(٢)، ولعل هذا ما جعل صلاح الدين يُصر على هدم الحصن.

---

(1) Delaville Le Roulx, *Cartulaire general,* vol. 1, pp. 379–380, no. 559, pp. 362–3, no. 530, pp. 363–4, no. 531; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 688–91, no. 405, pp. :697–8, no. 408, pp. 647–8, 687–8, nos. 376, 404, pp. 647, 687, nos. 375, 403, pp. 692–3, no. 406, pp. 697–8, no. 408; Müller, *Documenti*, pp. 17–18, no. 15; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 39–47.

وقد أشار وليم الصوري إلى مخاضة يعقوب بصفتها معبرًا للجيش الصليبي الذي توجه لمهاجمة قرى دمشق في شرق الأردن في السنوات التالية لهدم الحصن. انظر:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 485–6.

(٢) اتضحت هذه الفرضية في ندم السلمين على عدم هدم عكا قبيل وصول الحملة الصليبية الثالثة وفي هدمهم لعسقلان وتخريبها وغيرها، كما اتضحت أيضًا في قيام العادل بهدم الحصن الذي شيده على جبل طابور حينما أدرك أن الصليبيين الذي وفدوا على الشرق في الحملة الصليبية الخامسة كانوا يستهدفون هذا الحصن ليكون شوكة لهم في حلق المسلمين في تلك المنطقة المهمة. انظر:

Delaville Le Roulx, *Cartulaire general,* vol. 1, pp. 379–380, no. 559, pp. 362–3, no. 530, pp. 363–4, no. 531; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 688–91, no. 405, pp. 697–8, no. 408, pp. 647–8, 687–8, nos. 376, 404, pp. 647, 687, nos. 375, 403, pp. 692–3, no. 406, pp. 697–8, no. 408, vol. 3. pp. 1041–52, no. 639; Müller, *Documenti*, pp. 17–18, no. 15; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239–47; Perry, G., *John of Brienne: King of Jerusalem, Emperor of Constantinople*, c.1175–1237, pp. 198–200.

وقد سعى إيلينبلوم إلى تفسير سقوط الحصن في أيدي المسلمين؛ نتيجة لأنه شُيِّدَ بسرعة دون مُراعاة جودة البناء مما يسَرَ على المسلمين إسقاطه، واستدل على فرضيته بإشارته إلى أكوام الكلس المُتراكمة في موقع البناء واختلاطها برؤوس السهام مُعتبرًا إياها دليلًا على توقف أعمال البناء فجأة بسبب مُحاصرة المسلمين للحصن، ليُؤكد أن الحصن لم يزد عن كونه مجرد موقع بناء مُزدحم بأعمال غير مكتملة عندما حاصره المسلمون، بحيث لم تتجاوز نسبة بناء المرافق الداخلية ١٥%، وبالجملة فلم يُكمل الصليبيون أكثر من ٢٥% من خطة بناء الحصن[١]. ولا ريب في أن لبعض رُؤى إيلينبلوم وجاهة وبخاصة أن المُسلمين أسروا أكثر من مائة معماري وحرفيّ حينما اقتحموا الحصن، وهو عدد كبير يُزكي افتراض إيلينبلوم وإلا فما الحاجة إلى إبقاء مثل هذا العدد الكبير من المعماريين إلى أواخر أغسطس ١١٧٩م في حصن انتهى تشييده منذ أبريل ١١٧٩م!

بيد إن هذا لا يعني أن جدران الحصن كانت ضعيفة وأن حامية الحصن انسحبت إلى الداخل لظنهم أن جدران حصنهم لن تقوى على الصمود أمام المُسلمين[٢]، وهي فرضية أخرى في غير محلها وإلا لتعين على حامية الحصن الهرب إلى الفضاء المفتوح. وإذا صح أن احتماء الحامية بالجدران كان مُؤقتًا ريثما تصل التعزيزات الصليبية فإن مُقاومة جدران الحصن لخمسة أيام من الحصار الكامل بلا مضايقة قوية من حامية الحصن بالداخل ودون تدخل من الصليبيين المُحتشدين في طبرية يؤكد أن جدران الحصن لم تكن بالضعف الذي صوره إيلينبلوم حتى وإن كانت مُجرد جدران ساترة؛ لأنها شُيدت لحماية الموقع من هجوم المسلمين وقت البناء وأجدر بها أن تحميه الآن[٣]. وإذا ما صح افتراض إيلينبلوم عن ضعف جدران الحصن، فإنه يُلقي بمسئولية ثقيلة الوطأة على الصليبيين الذين لم ينهضوا على الفور لنجدة حصنهم وهم يعلمون جيدًا بضعفه وعجزه عن دفع الحصار الإسلامي له اتساق مع افتراض إيلينبلوم.

([1]) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 88.

([2]) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 271–4.

([٣]) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨٠–١٨١.

وحينما برر إيلينبلوم تأخر الجيش في الوصول إلى الحصن في الوقت المُناسب، بسبب قصر المدة التي استولى فيها المسلمون على الحصن، وأن حشد الجيش كان يحتاج وقتًا أطول، فإنه لم ينتبه إلى رواية وليم الصوري عن حشد جيش المملكة بالفعل في طبرية، ولكن الملك أمر بتأجيل الهجوم ليوم كامل، وهو اليوم الذي اقتحم فيه المسلمون الحصن، ولذا فإن تأجيل الملك لقرار الهجوم برغم استعداد جيشه للهجوم ينفي فرضية سقوط الحصن؛ بسبب ضعف جدرانه وإلا لسارع الصليبيون إلى نجدته فور حشد الجيش في طبرية[١]. وقد سبق واستدعى بلدوين الرابع جيشه إلى المنطقة ذاتها منذ بضعة شهور في مدة لم تتجاوز ستة أيام وكان الجيش آنذاك مُنهكًا للغاية[٢].

ويرى الباحث في عدم استهانة المسلمين بالحصن وفشلهم في اقتحامه أكثر من مرة في أبريل ومايو ١١٧٩م، يؤكد أن الجدران لم تكن بالضعف الذي صوره إيلينبلوم، وبخاصة أن عمليات البناء وقتها كانت في طورها الأول ويفترض أن تكون دفاعات الحصن أضعف، وبالرغم من ذلك فقد فشل المسلمون في الاستيلاء عليه وآثروا انتظار التعزيزات. وفوق هذا وذاك فإن إقدام صلاح الدين على التفاوض على هدم الحصن مقابل تعويض الصليبيين عن تكلفة تشييده لأكبر دليل على تأكد صلاح الدين من أن الاستيلاء على الحصن لم يكن أمرًا هينًا[٣]. وكان للحروب التي خاضها صلاح الدين ضدهم والغارات التي شنها عليهم دور كبير في إنهاكهم، علاوة على قتله لكثير من الأمراء والفرسان وأسره لآخرين ممن عول عليهم الملك في مواجهة المسلمين، ولذا بدا الصليبيون مُنهكين في الحصن وقت الحصار، وأما من احتشد في طبرية، فإنهم فقدوا القدرة على التحرك في الوقت المُناسب لإنقاذ الحصن[٤].

([1]) William of tyre, *History of Deeds, vol. 2,* p. 444.

وأيضًا: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٧٩.

([٢]) حدث ذلك حينما رحل الملك عن الحصن إلى بيت المقدس في الثاني من أبريل ١١٧٩م ثم اضطر للعودة لمواجهة المُسلمين في واقعة همفري في ٩ من أبريل ١١٧٩م واستغرق منه الذهاب والإياب والحشد ستة أيام فحسب، وتوجه بجيشه إلى بانياس أي لمسافة أبعد عن موقع الحصن بعشرين كيلو مترًا شمالًا. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٤٩، ١٥٠-١٥١. وأيضًا:

William of Tyre, *History of Deeds, vol. 2,* pp. 440.

([٣]) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٦٤-١٧٥، ١٨٠-١٨١.

([4]) William of tyre, *History of Deeds,* vol. 2, pp. 464-5.

وقد **نظر المُؤرخون المُحدثون** إلى استيلاء المسلمين على الحصن بصور مُتضاربة مزجوا فيها بين الإعجاب بالمُسلمين والشفقة على الوضع الكارثي الذي آلت إليه الأمور في مملكة بيت المقدس؛ فأثنى كينيدي على ذلك الحدث، وأكد أن المُسلمين أظهروا وللمرة الأولى إيجابية عالية في الاسيتلاء على حصن صليبي مهم ومُؤثر وعَدَّهُ نذيرًا بكافة الكوارث التي ألمَتْ بالصليبيين في المستقبل(١). ورأى باربر أن الحوادث التي جرت بين المُسلمين والصليبيين حول الحصن مهدت لمعركة حطين عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ؛ لأن موقف المُسلمين لم يكن قويًّا أمام الصليبيين بين عامي ١١٧٤ و١١٧٧م، ولكنه تحسن كثيرًا بعد الضرر الجسيم الذي ألحقه المسلمون بالصليبيين في معركتي همفري ١١٧٨م/٥٧٤هـ ومرج عيون ١١٧٩م/٥٧٥هـ، ثم ظهر صلاح الدين بصورة أقوى بعد تدمير الحصن بتوغله غربًا وجنوبًا في عمق المملكة بطريقة غير مسبوقة(٢).

أما إيلينبلوم، فالبرغم من تعصبه ضد المسلمين على ما ظهر في كثير من إشكالياته وفرضياته، فإنه اضطر في النهاية إلى الإقرار بأن استيلاء المسلمين على هذا الحصن المهم مثَّل

---

(1) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 57.

(2) Barber, *Frontier Warfare*, p. 15.

رأى باربر أنه يمكن ترجيح هذه الفرضية بمقارنة موقف صلاح الدين قبل الاستيلاء على الحصن وبعده؛ ففي سنة ١١٧٤م فشل صلاح الدين في الاستيلاء على حلب مما منعه من مُحاصرة الصليبيين بأريحية، وبالرغم من تحقيقه نجاحًا طفيفًا في مُهاجمة الصليبيين خلال السنوات التالية فإن الصليبيين تولوا زمام المبادرة وبلغت مُواجهاتهم ذروتها بانتصارهم في مونتجيسارد عام ١١٧٧م وسعيهم لبناء حصن مخاضة يعقوب ١١٧٨م. ثم تغير الوضع بمقدمات استيلاء صلاح الدين على الحصن وتوج تفوقه بهدم الحصن وبالغارات التالية التي أنهكت الصليبيين لتكرارها، وبالرغم من قيام أرناط بأكثر من غارة متهورة ضد المسلمين فقد غلب على مجمل تحركات الصليبيين في المملكة خلال سنوات ١١٨٠ و١١٨٧م السعي لسد الثغرات التي كشفتها غارات صلاح الدين وهجماته المتتالية والمنتظمة والتي توغل بها إلى شمال الجليل وبيسان ونابلس ووصل بها إلى صيدا وبيروت على الساحل، وأغار عدة مرات على الكرك في الجنوب الشرقي، وفتح جبهات جديدة من الناحية الغربية بشن هجمات بحرية غير مسبوقة بما في ذلك مُهاجمة عكا في أكتوبر ١١٧٩م، ولذا كان لنجاح صلاح الدين في هدم الحصن أثر كبير في قلب موازين الصراع مع الصليبيين لصالحه. انظر:
Barber, *Frontier Warfare*, p. 15. Cf. also: Kennedy, *Crusader Castles*, p. 57; Ellenblum, *Weapon injuries*, pp. 151–3; Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 87–90.

نقطة تحول في تاريخ الصراع بين المسلمين والصليبيين، وترتب على سقوط الحصن في أيدي المسلمين زيادة الهجمات والتوغلات التي قام بها المُسلمون ضد الصليبيين، وشملت أهدافها عددًا أكبر من المراكز داخل المملكة، وقلل الصليبيون تدريجيًّا من المُواجهات العسكرية المُباشرة ضد المُسلمين، مما سيُؤدي مع أمور أخرى إلى الهزيمة الكارثية للصليبيين في حطين(١).

وأما **الهُدنة** التي عُقدت بين الطرفين في مايو ١١٨٠م/أوائل ٥٧٦هـ، فلم تمدنا المصادر المُعاصرة بأية تفاصيل عن شروطها(٢)، وبالرغم من تريث صلاح الدين في الحصول على شروط أفضل، فإنه وافق عليها في النهاية ليس خوفًا من الصليبيين، ولكن بسبب الصعوبات التي واجهها نتيجة الجفاف والجدب الذي استمر في بلاد الشام لخمس سنوات تالية(٣). وتُرَجِّح الحوادث التالية اتفاق الطرفين على عامين كالهدنة السابقة التي تلت معركة مونتجيسارد، وحرص كل طرف على ضمان حُرية التجارة(٤). وكان الصليبيون بدورهم سُعداء بقبولهم الهدنة على الرغم من أنها كانت مُهينة لهم، ولكنهم لم يملكوا رفاهية الرفض؛ لأن الجهد الحربي الذي بذلوه في عامي ١١٧٨-١١٧٩م/٥٧٤-٥٧٥هـ استنفذ طاقتهم وبدد بناء الحصن كثيرًا من مواردهم، ولذا كانت الهدنة بمثابة فترة راحة لهم لالتقاط الأنفاس(٥).

---

(1) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 274.

(2) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 446–7.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٩٣-٩٤.

(4) Gibb (H.), 'The Rise of Saladin', in *Setton*, vol. I, P. 581; Smail, *Crusading Warfare*, p. 36.

(5) William of Tyre, *History of Deeds,* vol. 2, pp. 464–5.

كان وليم الصوري قلقًا على مصير المملكة ونقل هذا القلق باهتمام وحماسة إلى الغرب، وتأكد قلقه مع تزامن انتهاء تلك الهدنة وقيام حكومة إندرونيكوس كومنينوس في القسطنطينية في سبتمبر ١١٨٢م والذي كان مُعاديًا للصليبيين. وبذا فقدت المملكة الدعم الغربي الثقيل بما يُعادل قوة فيليب كونت الفلاندرز وهنري أوف تروي، فضلًا عن مرض الملك بلدوين الرابع وتدهور حالته الصحية، وما تلا ذلك من فترة تعد الأحلك في تاريخ الصليبيين في الشرق خلال القرن الثاني عشر. انظر:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 466–7. Cf. also: Barber, *Frontier Warfare*, pp. 18–19; B. Hamilton, 'Manuel I Comnenus and Baldwin IV of Jerusalem', in *Kathegetria*. Essays presented to Joan Hussey on her Eightieth Birthday, (Camberley, 1988), pp. 353–75.

وأفاد صلاح الدين من تلك الهُدنة بالسعي لتحقيق طموحاته في أماكن أخرى من العالم الإسلامي ولعل أخطرها ضم حلب إلى ممتلكاته في ١٢ من يونيه ١١٨٣م/١٩ من صفر ٥٧٩هـ[١]، وقد أدرك الصليبيون منذ ذلك الوقت أنهم من الآن فصاعدًا قد صاروا تحت حصار المُسلمين تقريبًا وهو أمر تخوف منه وليم الصوري في حينه[٢].

وهكذا سيطر صلاح الدين على هذا الممر المهم وفتحه أمام جيوشه وتُجَّاره والمارة من العامة من شرق الأردن إلى غربه والعكس، ولضمان تنفيذ استراتيجيته، فإنه حرص على التواجد الدائم بمنطقة الحصن حتى لا يمنح الصليبيين أي فرصة لمعاودة بناء أية حصون في هذا الموضع، ولم يكن لدى الصليبيين الذين لم يفيقوا من تبعات الغارات المتكررة للمسلمين على موقع الحصن وكذا صفد وطبرية وبيسان وصور وصيدا وبيروت وغيرها – لتجريدها مستقبلًا من أي عامل قوة[٣] – أية فرصة للتفكير في إعادة بناء الحصن في تلك

([1]) William of tyre, *History of Deeds,* vol. 2, pp. 489–91.

([2]) William of tyre, *History of Deeds,* vol. 2, pp. 489–91. Cf. also: Barber, *Frontier Warfare*, p. 15–16.

(٣) أبو شامة: الروضتين، جـ٣، ص٢٦، ٣٤. وقد حاول الصليبيون اعتراض الغارات المتكررة التي شنها المسلمون بعد تدمير الحصن، ولكنهم فشلوا في ذلك، ونجح فرخشاه في الإغارة على طبرية وعكا ودبورية، ثم استولى على قلعة حابس جلدك جنوب شرق بحر الجليل التي هيمنت على منطقة الغور بموازاة بيسان وطبرية، وغنم فرخشاه غنيمة ضخمة، وبحلول أواخر يوليو كان صلاح الدين نفسه يُهاجم طبرية وبيسان، وخاض معركة ضد الصليبيين في بلفوار أو كوكب الهو، وبالرغم من استعادة ريموند الثالث لحابس جلدك في ديسمبر ١١٨٢م فقد كان نجاحه طفيفًا مقارنة باستسلام حلب لصلاح الدين في ١٢ من يونيه ١١٨٣م. انظر :ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص١١٠–١١١، ١٢٤–١٢٨، ١٢٧–١٢٨، ١٤٢–١٤٦. وأيضًا:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 468–70, 480–5, 489–91. Cf. also: Barber, *Frontier Warfare*, pp. 14–16.

المنطقة مرة أخرى[١]، وبخاصة بعد عودة المسلمين لزيارة المشهد اليعقوبي[٢]، وأدرك الصليبيون منذ ذلك الوقت أنهم من الآن فصاعدًا قد صاروا تحت حصار المسلمين[٣].

([1]) Delaville Le Roulx, *Cartulaire general,* vol. 1, pp. 379–380, no. 559, pp. 362–3, no. 530, pp. 363–4, no. 531; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 688–91, no. 405, pp. 697–8, no. 408, pp. 647–8, 687–8, nos. 376, 404, pp. 647, 687, nos. 375, 403, pp. 692–3, no. 406, pp. 697–8, no. 408, vol. 3. pp. 1041–52, no. 639; Müller, *Documenti*, pp. 17–18, no. 15; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239–47; Perry, *John of Brienne,* pp. 198–200.

([٢]) الأصفهاني: البرق الشامي، جـ٣، ص١٨١.

([3]) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 489–91. Cf. also: Barber, *Frontier Warfare*, pp. 15–16.

حاول الصليبيون اعتراض الغارات المتكررة التي شنها المسلمون بعد تدمير الحصن، ولكنهم فشلوا في ذلك، ونجح فرخشاه في الإغارة على طبرية وعكا ودبورية، ثم استولى على قلعة حابس جلدك جنوب شرق بحر الجليل التي هيمنت على منطقة الغور بموازاة بيسان وطبرية، وغنم فرخشاه غنيمة ضخمة، وبحلول أواخر يوليو، كان صلاح الدين نفسه يُهاجم طبرية وبيسان، وخاض معركة ضد الصليبيين في بلفوار أو كوكب الهو، وبالرغم من استعادة ريموند الثالث لحابس جلدك في ديسمبر ١١٨٢م، فقد كان نجاحه طفيفًا مقارنة باستسلام حلب لصلاح الدين في ١٢ من يونيه ١١٨٣م. انظر:ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص١١٠–١١١، ١٢٤–١٢٨، ١٢٧–١٢٨، ١٤٢–١٤٦. وأيضًا:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 468–70, 480–5, 489–91. Cf. also: Barber, *Frontier Warfare*, pp. 14–16.

نتائج البحث:

- أفاد الصليبيون من انشغال صلاح الدين في حصار بعلبك، واحتشدوا جميعًا من المملكة وطرابلس وأنطاكية والبارونات والداوية والاسبتارية لبناء حصن مخاضة يعقوب في أحد أهم الممرات التي تربط بين دمشق والساحل الشامي، ودمشق والقاهرة بهدف عرقلة القوافل الإسلامية وحركة المرور فضلًا عن تحجيم قوة المسلمين في دمشق، ولفرض رقابة صارمة على الحدود الشرقية مع المسلمين.
- يُعد الأصفهاني أحد أبرز المُؤرخين المعاصرين الذي عالجوا الحوادث المتعلقة بالحصن ويليه كل من الفاضل ووليم الصوري وابن الأثير.
- شُيِّد حصن مخاضة يعقوب وفق أبسط نماذج بناء القلاع الصليبية المعروف بالحصن العلبة الذي يقتصر على الاحتياجات الرئيسة للحامية المسؤولة عن حمايته لتمكينها من السيطرة على حركة المرور بالمنطقة المُحيطة به.
- أنفق الصليبيون على بناء الحصن كثيرًا من المال والجهد في البناء والتأمين، وترتب على سقوطه في أيدي المسلمين خسارتهم للمال والجهد الكبير الذي بذلوه في تشييد الحصن وتأمينه والدفاع عنه.
- تفاوض المسلمون مع الصليبيين في البداية على هدم الحصن لإدراكهم صعوبة الاستيلاء عليه، ولا يعني ذلك أن الحصن وقع ضمن الحدود الإسلامية وفق افتراض إيلينبلوم؛ لأن حرص المسلمين على هدم الحصن نبع من خطورته على حركة المرور من دمشق إلى الساحل ومصر والعكس، ويتساوى في ذلك حرص صلاح الدين على الاستيلاء على كل من الكرك والشوبك للصعوبات التي يفرضها كل منهما على حركة المرور بين مصر والشام والحجاز.
- فشلت محاولات صلاح الدين الأولية في أبريل ومايو ١١٧٩م في الاستيلاء على الحصن، ولكن كان للمعارك والغارات التي سبقت سقوط الحصن دور كبير في إنهاك

الصليبيين واستنزاف مواردهم، وحينما حاصر المسلمون الحصن في أغسطس ١١٧٩م، فإنهم نجحوا في تحييد الصليبيين بالخارج وعزلهم عن الحصن وتفردوا به وبحاميته وحينها نجحوا في الاستيلاء عليه وتدميره في ٢٨ من أغسطس ١١٧٩م.

- نجح صلاح الدين في تحقيق استراتيجيته التي أعلنها الأصفهاني والخاصة باستنفاذ موارد الصليبيين وتبديدها وإنهاكهم بدانيًّا ونفسيًّا وماديًّا منذ اللحظة التي شرعوا فيها في بناء الحصن، ومرورًا بإنهاكهم عبر هجماته المتكررة على الحصن وإغاراته الكثيرة على مدنهم ومواقعهم وفي أثناء المعارك التي خاضها ضدهم وأخيرًا بمهاجمة الحصن والاستيلاء عليه.
- فضل المسلمون حصار الحصن ونقبه على ضربه بالمناجيق بسبب عامل الوقت الذي لم يكن في صالحهم، فضلًا عن تجمع الصليبيين في طبرية بأعداد كبيرة ولذا هاجموا الباشورة ونقبوا الأسوار مباشرة وأسقطوا الحصن خلال خمسة أيام.
- ترتب على سقوط الحصن بأيدي المسلمين وتدميرهم إياه قلب موازين القوى بالتدريج لصالح المسلمين، ومهدت الغارات المُتتالية التي شنها صلاح الدين ضد موانيء الساحل ومدن شمال مملكة بيت المقدس للوصول إلى تلك النتيجة، وأكد بعض المؤرخين الأوربيين أن سقوط الحصن مّهَدَّ لمعركة حطين وتوابعها.
- ترتب على سقوط الحصن في أيدي المسلمين وتدميره أن الصليبيين بعامة وفرق الفرسان الرهبان بخاصة فشلوا في فرض استراتيجيتهم الجديدة على حدودهم الشرقية مع المسلمين، وعجزوا عن منع المسلمين من الانطلاق من دمشق ومهاجمة مدن شمال مملكة بيت المقدس.
- مهد سقوط الحصن في أيدي المسلمين مع عوامل أخرى كثيرة لإضعاف الصليبيين على المدى البعيد ومن ثم هزيمتهم الكارثية في حطين ١١٨٧م/٥٨٣هـ.

مخطط حصن مخاضة يعقوب[١]

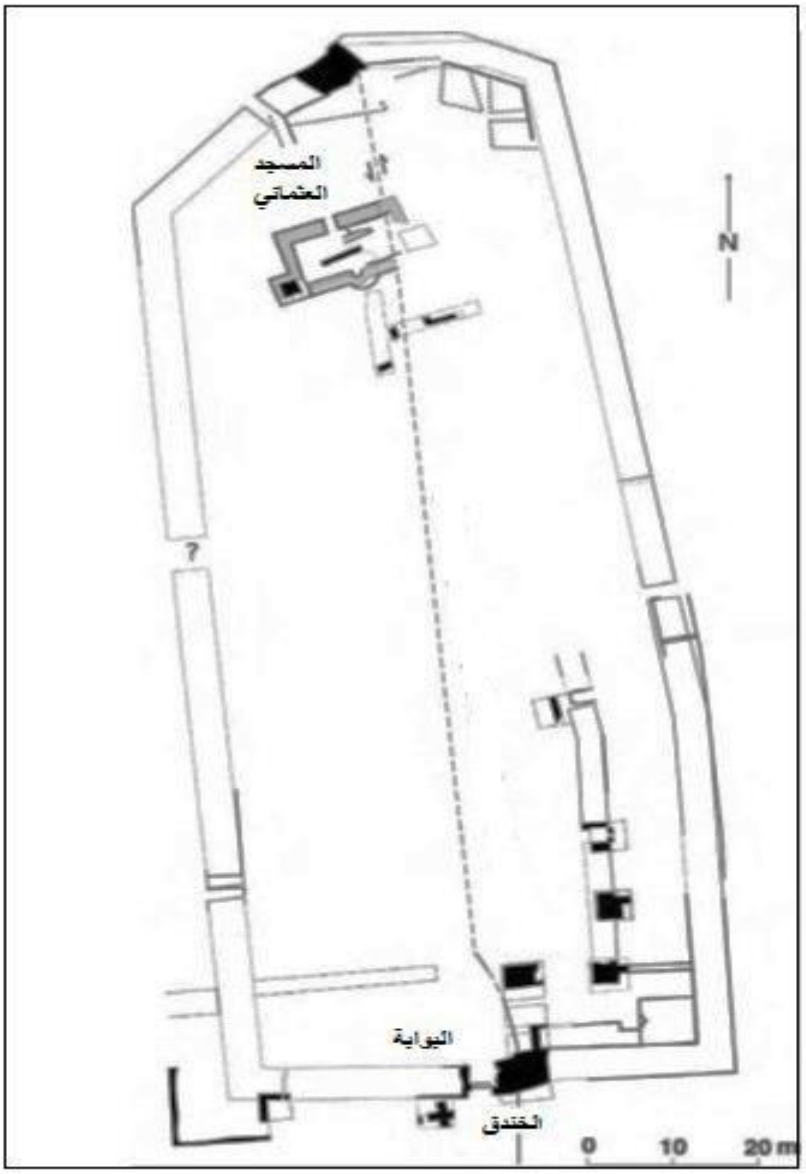

(1) Ellenblum, Crusader Castles, p. 285.

مواقع أهم المدن والحصون الواردة في البحث[١]

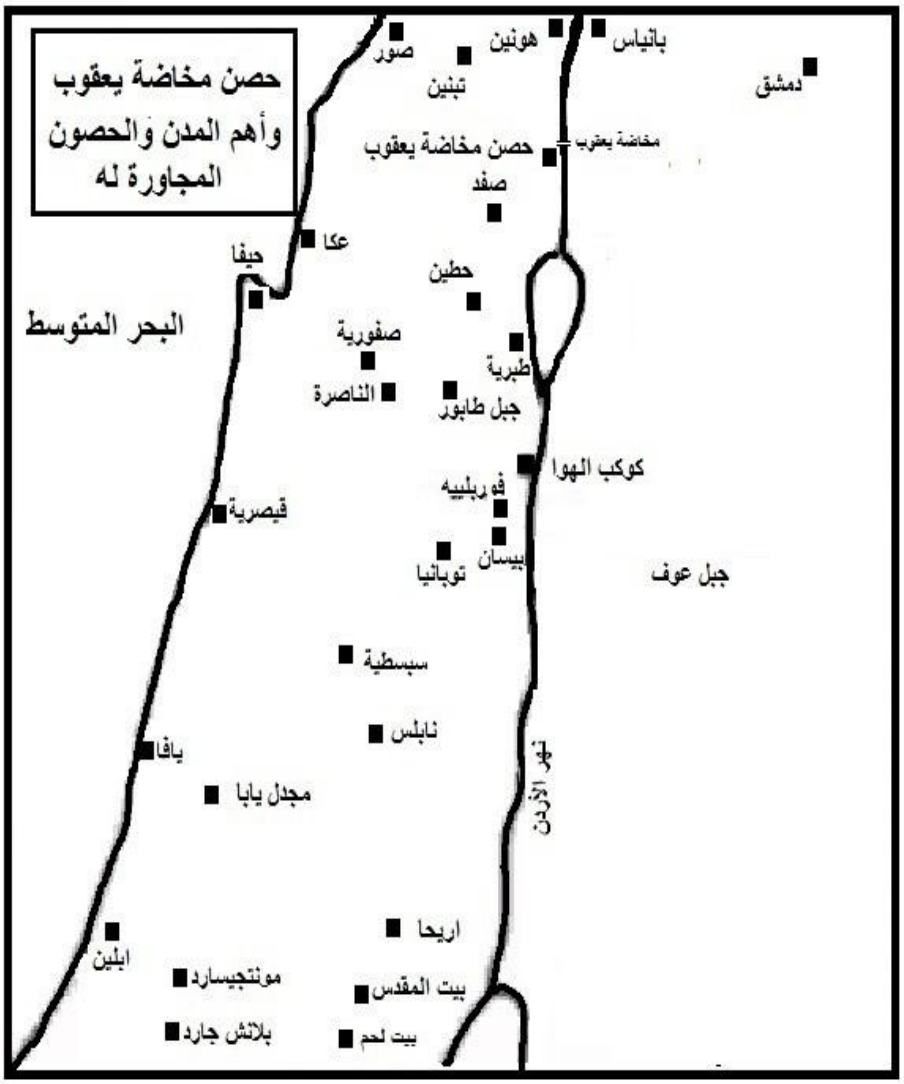

(١) الخريطة من إعداد الباحث.

خريطة لأهم المدن والحصون في بلاد الشام[١]

(١) نقلًا عن: مولر: القلاع أيام الحروبمولر الصليبية، ص١٣٠.